© دار خـــــان
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠١٣
رقم الإيداع: ١٥١٣١/٢٠١٣

ISBN: 978- 977 -5185 -35- 12

دار خان
ص.ب: ١٣٢ رمسيس-وسط البلد- القاهرة- مصر
هاتف: ٠١٠٠٥٥٣٩٤٧٢
e-mail: Darkhan.egypt@gmail.com
Dar Khan
P.O.Box 132-Ramses-down town-Cairo-Egypt
Tel.:01005539472

سلسلة إبداعات عربية

حكايات سَتّة ابتدائي
زمن النفخ الجميل

المؤلف: ضياء أبو اليزيد

فكرة الغلاف: ضياء أبو اليزيد

الغلاف والرسوم الداخلية: مخلوف

جميع الحقوق محفوظه للناشر،ويحظر نشر أو إقتباس أي جزء من هذا العمل أو كله إلا بإذن كتابي.
ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

ضياء أبو اليزيد

حكايات سَتّة ابتدائي

ذكريات من زمن النفخ الجميل

دار خان
DarKhan

إهداء

إلى أصدقاء العمر... من أجل ضحكات صافية تبقى بعد أن نمضي

جوليا: الحب فقط هو ما يجعل قلوبنا تبصر

كريم ومليكة: هذه طفولتي... فلا تنسوها

"مقدمة"

إذا كنت ممن أدمنوا مشاهدة القنوات المصرية وهي تنقل على الهواء ما يحدث في الشارع بعد ثورة يناير من فوضى وعك غير مسبوق تاريخيًّا على المستويين الرسمي والشعبي ثم تمصمص شفتيك وتتعجب كيف وصل الشعب إلى هذا المستوى من الأخلاق والسلوك بعد ان انبهر العالم بثورتنا المجيدة فأنت "بقيت زبوني الليلة" •••

هذا الكتاب يضم مجموعة من الحكايات التي تخص المؤلف أحيانًا وتخص بعض أصدقائه أحيانًا أخرى، لكنها في كل الأحوال تعبر عن مرحلة طفولة عاشها جيل، ربما يكون هو من بدأ الثورة في مصر قبل أن تجيء ثورة يناير بسنوات•

أقول بدأ جيلنا الثورة بعد أن انقطعت المظاهرات في مصر من بعد يناير ٧٧ باستثناء مظاهرات الطلبة في الجامعة دعمًا لفلسطين أو العراق، إلى أن جاءت حركة كفاية في بدايات الألفية الثالثة وبدأت تجهر بالكلمة التي لم يجرؤ على قولها من قبلنا، لكن هذا حديث آخر.

في هذا الكتاب أحكي عن طفولة ثم صبا قضيناهما في ثمانينيات وأوائل تسعينيات القرن العشرين. في مدارس وكتاتيب وحواري وشوارع القاهرة، في غفلة بل تواطؤ من الكبار. عانى جيلنا هذا من عمليات اضطهاد منظمة شنها ضده الأهل والأساتذة من الكبار دون مبرر مفهوم، على الأقل بالنسبة لنا كأطفال، أو حتى بعد ما أصبحنا رجالاً ونساء.

عنف لفظي وجسدي غير مسبوق كان يعصف بطفولتنا نحن أبناء العشوائيات والضواحي البعيدة عن أعين وسط المدينة.

عندما كبرنا أصبحنا نتبادل حكايات العنف التي شهدناها في طفولتنا من زاوية كوميدية فكان شر البلية يميتنا ضحكًا.

يتذكر واحد من شلتنا كيف ألقى المدرس بأخيه من أعلى سلم المدرسة فنقهقه حتى البكاء، ويستدعي آخر مشهدًا لمدرس يحمل مطواة (قرن غزال) في جيبه الخلفي فنرتمي أرضًا غير مصدقين.

ربما لن تكون كل هذه الحكايات مضحكة بالنسبة لك يا زبوني العزيز، وأعتذر لك مقدمًا إن كان هذا هو الحال، لكن ما أستطيع أن أعدك به هو أن كل ما ورد في هذا الكتاب مبني على أساس واقعي مائة وعشرين قيراط، لا مبالغات ولا خيالات (باستثناء الحكاية الأخيرة التي غلبني فيها الخيال فمزجته بالواقع أيضًا) وإنما فقط صياغة أدبية لحكايات أبطالها شخصيات حقيقية، ربما ما زال أغلبهم على قيد الحياة، ولعل بعضهم يقرأها هنا ما قدمت يداه، فيسعفه ضميره بتفسير لما أحدثوه من تشوهات في جيل كامل، تشوهات نفسية بالطبع، لكن من المحتمل جدًّا أن تكون هناك بعض الحالات من التشوهات الجسدية التي تستوجب تقديم بلاغات لمنظمة العفو الدولية.

ما ستقرؤه في الحكايات الـ ١١ هنا هي محاولة لتفسير لماذا انفجر بعض من الشعب المصري، المتدين بطبعه، عنفًا وبذاءة وسوء خلق بعد ان انكشفت غلالة السلطة الهشة/ الغليظة، فكل ما حدث أن خرج على السطح ما كان موجودًا بالفعل، لم يزد عليه شيء.

كل ما تراه عيناك اليوم رُبّي وتخمر في هذا البلد، فهو صناعة مصرية بأيدٍ مصرية خالصة.

وإن كنت لا أزال عاجزًا عن الإجابة عن سؤال مهم، وهو: من بدأ كرة الطين (فكرة الثلج تعبير لا يناسبنا)؟ إلى أي جيل وأي زمن يمكن أن نشير بأصبع الاتهام ونقول إن هذا الجيل بدأ بالعنف وورثه

لمن جاء بعده إلى أن وصلنا•

يحضرني هنا أن برقية وجدت من أيام الفراعنة يحكي فيها مجند لخطيبته كيف لا يرغب في أن يبقى في المعسكر، وأنه يود العودة سريعًا إلى أهله ومنزله لأن الضباط يضربونهم بدون ذنب•

فهل كانت البداية موغلة في التاريخ إلى هذا الحد الذي لا نستطيع معه أن نمسك ببداية الخيط؟
سألت والدي عن العنف ضد أطفال المدارس أو في البيوت في زمانه (أوائل الخمسينات) فلم يبد لي أن العنف في التعامل مع الطفل كان قد وصل للمستوى الذي وصل إليه في زماننا•

بل الصورة التي باتت أقرب إلى ذهني هي صورة قريبة من الأفلام الأبيض وأسود حيث كان آخر ما يفعله المدرس هو تمليص أذن الطالب الشقي•

أما العنف الجسدي الأكثر في ذلك الزمان فيبدو أنه كان في الريف حيث كان مباحًا لصاحب الكتاب (محفظ القرآن) أن "يمد" الأولاد على أقدامهم إن أهملوا في الحفظ، وكان الأهالي لا يعترضون على هذا غالبًا•

ويبدو من المعقول أن نتصور أن ما حدث من ترييف للمدن

المصرية ربما جلب معه هذه الثقافة ثم توحشت بعد أن اختلطت بكل عيوب المدينة وأسلوبها الجاف المتسرع•

فهل يعقل أن البداية كانت على مستوى المكان من الريف الذي أعطى أسوأ ما فيه للمدينة فأضافت هي كذلك أسوأ ما فيها؟ لا أعرف!
النتيجة هي أن جيلنا (عن مواليد السبعينيات وما جاورها أتحدث) هو جيل متردد وخائف ومهتز في رؤيته وقراره ومنعدم الثقة في نفسه، وفي وقدراته•

ألا تصدقني؟ عندي دليل: ألم نر جميعًا كيف انتظر هذا الجيل التعيس الجيل الذي تلاه حتى يستطيع أن يحقق ما فكر فيه، وتكلم ثم تكلم عنه دون أن "يفعل" فعلاً حقيقيًّا•

فالجيل الجديد، على عكسنا نحن، هو جيلُ فعلٍ لا كلامٍ؛ مد يده وقطف الثمرة في وقت وجيز، وأزاح، في بساطة متناهية، الوتد الذي كان قد تخلخل بالفعل، لكن جبن الأجيال السابقة لم يتح لها أن ترى كم هو متهرئ•

السبب في رأيي هو هذه الطريقة المريعة في تربية اطفال مصر على مدى سنوات طويلة، وهو ما غضضنا عنه جميعًا الطرف، ولم نقم له وزنًا، حتى الآن فيما أعلم، في دراساتنا الاجتماعية والإنسانية،

هذا إن وجدت•

ليس أقصى ما أتمناه هو فقط أن تستمتع يا زبوني العزيز بما تقرأ، وإن كان هذا يسعدني للغاية، وإنما أمنيتي ودعائي إلى الله أن يجعل من وراء هذه الحكايات نفعًا لك ولغيرك، وربما لمجتمع كامل من البشر، يرتكب، ولا زال، الجريمة تلو الأخرى في حق مستقبله دون أن يفيق للحظة أو يوجعه ضميره•

حتى اللحظة التي صدرت فيها الطبعة الأولى من هذا الكتاب كان كل "الكبار" في هذا "الوطن" منشغلين بكل شيء إلا أن يربوا أبناءهم في المدارس والشوارع والبيوت ليصبح كل منهم "إنسانًا" لا مجرد "بني آدم" أو "بني آدمة" يجهل على نفسه ولا يعرف كيف يربي أبناءه•

١ - آلات النفخ

لا أريد أن يذهب عقلك إلى الموسيقى حينما نتحدث عن آلات النفخ، فأنا هنا لا أقصد الترومبيت وما شابه، وإنما أتكلم عن الأدوات المستخدمة في عصرنا لتعذيب الأطفال، فأعددها هنا وأنا أتخيل نفسي شابًّا فرعونيًّا يخط بردية، ربما يجدها بعد آلاف السنين باحث في علوم الآثار فيعرف كيف كان المصريون يضربون أطفالهم في هذه الحقبة الزمنية•

ولكن، مادامت سيرة الموسيقى قد انفتحت، فسوف أستغل هذا، وأبدأ حكايتي من حصة الموسيقى في مدرسة حلمية الزيتون الإعدادية بنين، التي كانت مدرسة جميلة، عبارة عن فيلا قديمة لها حديقة واسعة، وحوش أوسع، يستوعب لعبنا وقت الفسحة، وكذلك طابورنا الصباحي•

كنت في السنة الثانية الإعدادية وكان لدينا حصة للموسيقى لا أعرف لماذا، فالمدرس كان يشرح لنا الموسيقى شرحًا نظريًّا لعدم وجود آلات موسيقية، ولا غرفة موسيقى أساسًا، فكان كلما بدأ في حصته الأسبوعية يكتب رموزاً من النوتة على السبورة، ويحاول أن يفهمنا في قرف معنى ما يكتب، وهي طريقة عجيبة جداً لا أظن أن هناك من مارسها في العالم سوانا نحن المصريين•

في ذلك اليوم كنت جالساً في غير مكاني الذي كان في أول دكة في الفصل، فلم أكن أرغب في سماع تلك الخرافات التي يهذي بها الرجل وسط تثاؤباتنا ونحن نشبه "تور الله في دراه" على رأي أحد الزملاء الذي فضل أن يعدل المثل الشعبي ملتزماً بالقافية•

المهم أن الأستاذ الذي نسيت اسمه ولم أنس شكله كان قصيرًا بشكل ملحوظ، ملتحياً، معقوف الأنف، ذا أسنان غير منتظمة، ويرتدي نظارة ذات زجاج رمادي، وكان يرفع بنطلونه فوق مستوى الوسط بقليل، فيبدو نصفه الأعلى مختصرًا أكثر مما هو عادي•

في الحقيقة كان الرجل يشبه النمط الشهير للشخصية اليهودية في المسرح• لكنه لم يكن شريرًا بل كان في أغلب الأحوال هادئًا، يعمل بمنطق من يعرف أن ما يقوله لا لزوم له، ولن يفهمه أحد، لكنه لابد أن يقوله•

فكان يتلوه في رتابة وهدوء ويسمح بأن يكلم بعضنا بعضًا أثناء الحصة وهو ما لم يكن يسمح به المدرسون الآخرون•

ثم كان أن رسم الأستاذ ما ادعى أنه آلة موسيقية من آلات النفخ، وبدت لي أنا شيئًا آخر فهمست بصوت خفيض للغاية أن الأستاذ رسم "حقنة شرجية"، وسمعها زميل كان يجلس قريبًا اسمه علاء، فخانه الحرص أو ربما استهان بالأستاذ الذي لم يبد من قبل أي ميول عدوانية و ردد بصوت عال ضاحكًا "هاهاه حقنة شرجية"•

وما كان من أستاذنا الوديع، إلا أن أوقف الدرس، وأشار إلى علاء قائلاً "تعالالي هنا"•

وعبثًا حاول علاء أن يقنعه أنه اقتبس تلك الكلمات البريئة مني، ومنعني حذري من التدخل أو الاعتراف بجريمتي•

خرج الأستاذ لمدة ثوان، لا أعرف إلى أين ذهب، ثم عاد ومعه عصا خرزان، طولها ربما يزيد عن طوله هو شخصياً ولم يعط علاء فرصة للتفاهم، فاضطر المسكين أن يفرد يديه ليتلق "عشر عصيان" كانت الواحدة منها ترتفع إلى عنان سقف الفيلا القديمة وتهبط وهي تصفر على يد علاء الذي كان معروفاً بيننا بقوة تحمله للضرب، لكن الصدمة كانت أكبر من استيعابه ففرت دموعه وهو في طريقه عائدًا إلى دكته في آخر الفصل•

هذه العصا كانت واحدة من أدوات النفخ في الحلمية الإعدادية، لكن غيرها كثير، وأشهرها كان الجلد الذي يستخلص من إكسسوارات أو سيور السيارات لسهولة حمله، ولسعته التي لا تبارى، والأهم أنه لا يترك أثراً على المضروب يمكن أن يثير مشاكل لا لزوم لها.

كذلك كما سنرى كانت كابلات الكهرباء ذات الحشو النحاسي حاضرة بقوة، والخرزان الأصلي الذي كان مفضلاً في الغالب لدى أساتذة الرياضيات لا أعرف لماذا.

العجيب أن علاء لم يعاتبني إطلاقاً على ندالتي معه، و تخليَّ عنه، وكأنه اعتبر سلوكي طبيعيًّا وليس فيه ما يستدعي العتاب، فقد كنت فقط أسعى لأنجو بنفسي من العقاب الأليم على ما زل به لساني، ولا أملك تغييره، ولا الاستغفار منه.

فاعتذاري لك يا زميلي المظلوم، وها أنا أقولها بعد كل تلك السنوات: أنا آسف يا علاء.

٢ - أبلة آمنة - الأم الرؤوم يا أولاد الجزمة

أليست الأطفال كائنات ملائكية حقاً•

أنا شخصياً أؤمن بهذا، وإلا فما الذي جعلني أحب أبلة آمنة كل هذا الحب؟ هي مدرستي الأولى في أول سنوات دراستي الابتدائية في مدرسة "ملحقة المعلمين الابتدائية المشتركة"، وقد سميت هذه المدرسة هكذا لأنها بنيت ملحقة بمعهد مجاور لتخريج معلمي المدارس الابتدائية، وكان يدخله الطالب بعد الإعدادية فيدرس به خمس سنوات، يتخرج بعدها وهو يحمل مؤهلاً فوق متوسط، ليُعين مدرسًا ابتدائيًّا، ولا يتجاوز هذه المرحلة إلى أن يخرج إلى المعاش• ولعل هذا كان سببًا في إحساس أغلب المدرسين في تلك المرحلة

بالاضطهاد، والقرف المبكر من العيال قبل حتى أن يبدأوا في تدريسهم، فهم على ثقة بأن نصيبهم أسود ومستقبلهم منيل، ولا أمل لهم في درس خصوصي يرفع مستواهم ولو حتى لمصاف مدرسي الإعدادي، ولا نقول الثانوية و ما أدراك ما الثانوية•

"أبلة" هو المصطلح الذي كنا نطلقه في مدارسنا الأميري (الحكومية) على المدرسة، فلم تكن كلمة "مس" قد أُختُرعت بعد، أو ربما كانت لكنها لم تخرج عن نطاق المدارس الخاصة التي كان يدخلها "ولاد الناس" أما نحن فأولاد ناس "برضه"، "بس" ناس لا تملك ما يكفي من أموال، وللحقيقة فإن سمعة المدارس الخاصة في ذلك الوقت (الثمانينيات) لم تكن أعظم كثيراً من الحكومية، بل على العكس كان هناك من الأهالي من يؤمن بأن مدارس الحكومة تخرج تلميذًا أفضل، ومن هذا الصنف الأخير كان أبي الذي كان يعمل مدرسًا أيضاً ولكن في مدرسة ثانوية•

كان أول فصل دراسي دخلته هو فصل أبلة هدى التي أتذكرها دائمًا ببونيه أخضر لا يفارق رأسها، وقطعة من القطن في أذنها، فقد كانت تعاني مشاكل في السمع تجعلها تصرخ رافعة صوتها الحاد دائمًا وهي تتكلم•

لم أكن مرتاحاً في فصل أبلة هدى، ولكنني كنت أصغر من إبداء أية ملاحظة على المدرسة أو الفصل، لكن السماء تدخلت فنقلت دون

طلب مني إلى فصل أبلة آمنة، وهي سيدة عجوز تشبه في ذاكرتي الممثلة ناهد سمير إلى حد ما، وترتدي نظارة طبية كبيرة تتدلى منها سلاسل تمسك بها عند طرف الأنف كي لا تنزلق.

وقد انتبهت أبلة آمنة إلى أنني طالب نبيه، على الأقل بالنسبة للمتوسط العام في المدرسة، فرحبت بي وأجلستني في أول صف حيث كانت القاعدة حتى نهاية المرحلة الابتدائية، وربما في سنوات الإعدادية المبكرة، هي أن يجلس التلميذ الشاطر في الأول، ويتدرج بعد ذلك كل حسب شطارته إلى أن نصل إلى "البلدا" من "بليد" الذين يجلسون في آخر الفصل محكومًا عليهم سلفًا بالفشل والغباء وغالبًا ما يكونون كذلك من مستوى اجتماعي ومادي أقل من الباقين، ويتم هذا التصنيف بمعرفة الأبلة -نادراً ما كان يتولى الرجال تدريس سنة أولى أو ثانية- وما لاحظته فيما بعد هو أن كثيرا من الأولاد يتبعون هذا التصنيف ويتعاملون على أنه أمر مسلم به فيلتصق مثل الوشم بأصحابه، ويظل الولد أو البنت من سنة أولى إلى سنة سَتّة في آخر صف، لا يرغب الشطار في صحبته أو صحبتها، ويكونون مجموعاتهم الخاصة وغالبًا ما يتدهورون أكثر فأكثر.

وأذكر إلى الآن بوضوح أن مدرسين طوال المرحلة الابتدائية وجهوا اللوم لي ولآخرين من "الشطار" بسبب تقربهم من أحد البلدا بدعوى أن البليد سوف يفسده أو يفسدها، لذا فقد كان الطرفان (الشاطر والبليد) ضحية هذا النظام الذي ما زلت لا أكاد أصدق أنه

كان عرفًا ساريًا في هذه النوعية من المدارس "الأميري".

كانت أبلة آمنة أمًّا بكل معنى الكلمة في تعاملها معي، ومع هاني اسحق، زميلي المسيحي الذي خسرته بسبب ترديدي كببغاء لأقاويل طائفية في خناقة بيننا فاشتكى لأمه التي اشتكت بدورها في المدرسة، ولم يوجه لي أحد اللوم إطلاقاً في هذا الأمر؛ لكن الشرخ في علاقتنا كان قد حدث.

أما الملاحظة الأساسية على أبلة آمنة هي أنها كانت كلما تعالى صوت التلاميذ كان يعلو صوتها من على باب الفصل حيث تقف تدردش مع أبلة هدى وأبلة سوسن: "بس يا اولاد الجزم".

لم يشعر أحد منا يومًا بالإهانة من سباب أبلة آمنة، لأن كل الأولاد كانوا يعتبرونها أمهم وبالتالي فلم يلق أحد بالاً إلى هذه الشتائم البسيطة، لكن أسوأ ما فعلته الأبلة بشخصيتي أنا وهاني، فهي أنها كانت تخرج أحياناً من الفصل، وتختار أحدنا ليكون "ألفة الفصل" أو بتعبير آخر "يقف على الفصل"، وبتعبير ثالث يراقب الفصل في غيبتها ويكتب اسم من يتكلم مع زميله كما تقتضي التعليمات "اللي يفتح بقه بس اكتبلي اسمه"، ويعاقب بناء على هذه التوصية كل من ورد اسمه في اللائحة بالضرب من عصايتين إلى أربعة حسب توصيتي وحسب مزاج الأبلة.
كانت هذه الطريقة منتشرة في كل الفصول وكل الصفوف من أولى

لسَتّة بلا استثناء، ونتج عنها طبعًا حزازات لا نهاية لها بين الضحية الذي يكلف برقابة زملائه وبين الباقين الذين يقعون في فرقتين إحداهما تتعلم سريعًا كيف تنافق "الألفة" وتحتمي بصداقته فلا تقع غالبًا تحت طائلة العقاب، وإن حدث وورد اسمها على لائحة المذنبين تكون قطيعة لساعات وربما لأيام إلى أن يتم الصلح ولم الشمل•

والفرقة الأخرى وهي غالباً من البلدا والمتوسطين، تستبيع وتناصب الألفة العداء، وربما تتربص به في مراحل متقدمة، وقد يتعرض إلى تلكيكة تؤدي لخناقة تفضي إلى علقة من بعض البلدا إذا أمنوا شر الأساتذة في الأيام التالية• وكانت هذه العمليات الانتقامية تنفذ أحياناً في نهايات العام الدراسي حيث يكون من السهل في تلك الحالة تفادي عواقبها ثم سقوطها بالتقادم خلال أشهر الصيف الطويلة•

في الفصل نفسه ولكن في الصف الثاني، وفي ذلك الوقت المبكر جدًّا، كانت قصة الحب الأولى أيضًا•

فقد كان في الفصل بنتان فقط تليقان بي من وجهة نظري، وقد غرتني السلطة والمكانة التي حققتها فصرت مشروعًا لكائن صغير مقيت ومحبوب بين أصحابه في نفس الوقت، وخاصة أصحابه البنات اللاتي دفعتهن الغريزة والتأثر بالمسلسلات التلفزيونية للإعجاب بالولد الأقوى••• كانت هناك منى ووفاء•

وفي أحد الأيام أتاني أحدهم برسالة حب في ورقة صغيرة ادعى أنها من منى، تلك الفتاة الجميلة الرقيقة، ولا أدري أي شيطان غرر بي ولا ما الذي دفعني لهذه الخسة المتناهية دون أي سبب، لكنني قررت أن أشهر بها، فذهبت بهذه الورقة إلى أمي، وإلى الأبلة، وقلت إن منى بعثت لي بها وأنني كولد مؤدب لا أدخل في مثل هذه الأمور.

بالطبع لم يعلق أحد على الموضوع، لكن منى صارت تكرهني كرهًا عنيفًا لم أبال به على الإطلاق، وظللت أعتقد أنها هي المخطئة ولست أنا.

لكن، يبدو أن هذا الأمر نبهني إلى مسألة العلاقات مع الجنس الآخر، فبدأت أفكر في أن "أحب" إحداهن، ولما كانت الأمور ليست على ما يرام مع منى، فقد قررت أن أفاتح وفاء وأنا أستدعي وأعايش كل مشاهد الحب في الأفلام والمسلسلات السبعينية وما أسخفها.

كنت واثقًا جدًّا من رد فعل وفاء بالإيجاب، فأنا "سوبر ستار" الفصل الذي لا يمكن مقاومته ولا ينافسني أحد، حتى هاني، كانت ديانته تفقده فرصة المنافسة على البنات اللاتي كن على حداثة سنهن واعيات تمامًا بالفروق الطائفية، وكذلك كنا.

المهم أن المشهد الذي ألّفته ومثلته مع وفاء انتهى بأن أصبحنا "مرتبطين" والفصل كله أصبح يعرف أن الفتاة فتاتي، حتى جاء

الصيف فقضى البعد الطويل على وهج الحب في صدورنا، وفي السنة الثالثة قررنا أننا لم نعد في حالة حب ويكفي أن نبقى فقط زملاء••• وهكذا راح الحب وبقيت فقط كراهية الأنثى لشخص أحبته فقابل ودها بنذالة، حتى لو كانت طفلة في ابتدائي•

٣ ـ عياد ولغز البرجل العملاق

على خلاف عادة الألغاز التي كان يكتبها أستاذنا الراحل الجميل محمود سالم، سوف أقدم لك اللغز وحله في السطور القليلة القادمة •

الحكاية وما فيها أننا بدأنا في السنة الرابعة الابتدائية ندرس الهندسة وهو ما كان يعني أن يتحقق حلمنا في أن نحمل "علبة هندسة" مثل الأولاد الكبار، وهي علبة معدنية مرسوم عليها خريطة العالم كانت تباع في المكتبات، تضم منقلة ومسطرة عشرين سنتي وأستيكة وبرجل معدني ذا سنون رصاص خاصة•

يمكنك شراء هذه العلبة بالطبع إن كنت من ميسوري الحال، أما إن كان أهلك غير ذلك فعليك أن تكتفي بشراء هذه الأدوات متفرقة،

وترضى بالبرجل النحاس الذي لابد من استخدام قلم رصاص معه، والأستيكة التي تقطع الورق ولا تمسح الكتابة•

أما الأستاذ عياد فكان أستاذ الرياضة في سنة رابعة، وكان لا يمسك بعصا لأنه كان يستخدم كفيه العريضين بشكل لافت في تأديب الخارجين أو المذنبين، ويضرب أحياناً بالبواني (أي بقبضة اليد)•

لكن كان هناك برجل عملاق لا يفارقه ويستخدمه لعمل الرسوم الهندسية على السبورة بعد أن يثبت قطعة طباشير في طرف البرجل، ويرتكز بسنه على نقطة من السبورة ثم يدور بالبرجل ليرسم دائرة أو قوس ••• الخ•

كان حجم البرجل من وجهة نظرنا كأطفال عجيبًا جدًّا، وللأمانة فأنا لم أشاهد مثله قبلها ولا بعدها، وكأن الأستاذ عياد قد استورده من بلاد العجائب•

وكان في نهاية البرجل العملاق صامولة معدنية لامعة تشبه الفيونكة أو الفراشة (أرجوك لا تسأل كيف أتذكر مثل هذه التفاصيل، فأنا لا أملك تفسيرًا) في الدكة الثانية من ناحية الباب كان يجلس محمد جاد، ذلك الولد الأسمر الذي ما زلت أذكر ملامحه الجميلة الهادئة، وكان متوسط المستوى في الدراسة، ويسكن في العمارة المجاورة للمدرسة مباشرة، ويمتلك أبوه محل خردوات أسفلها،

فكان لذلك طالبًا مميزًا ومشهوراً في الفصل.

وكان محمد من سنة أولى يتفادى الاحتكاك بالمدرسين، ولا يقحم نفسه في المنافسة على الإجابة على أسئلتهم في الفصل، سواء بطرقعة الأصابع كما كنا نفعل في البداية، أو الاكتفاء برفع الذراع عاليًا والكف عن طرقعة الأصابع عندما كبرنا وأصبحنا في سنة رابعة.

لكن أستاذ عياد لم يترك محمد في حاله، فبدلاً من إلقاء السؤال على الفصل بوجه عام، والانتقاء بين من يرغبون في الإجابة، كما هي العادة، أشار إلى محمد مقدمًا له الطباشيرة ليخرج إلى السبورة ويكتب حل التمرين بنفسه.

شمر محمد أكمام قميصه البيج، كما كانت عادته، وخرج إلى السبورة وقد بدا متردداً، ثم بدأ يتظاهر بالتفكير.

لكن كان من الواضح أنه لا يعرف ما هو الموضوع من الأساس، ولا في أي كتاب يقع هذا الكلام وتلك الرموز التي تغطي نصف اللوحة السوداء، وكانت غلطته الكبرى هو أنه لم يصارح عياد بهذا، وإنما حاول أن يفتي فيما لا يعلم فكانت العكة الكبرى التي هاج على أثرها عياد واعتبر ما حدث نوعا من الاستخفاف بشخصه، فإذا به يستخدم لأول مرة سلاحًا غير تقليدي ويؤدب جاد بالضرب بالبرجل على ظهره ضربات عنيفة متعددة فر على إثرها جاد إلى دكته، ودفن رأسه بين

يديه إلى نهاية اليوم الدراسي•

وفي اليوم التالي حضرت أخت محمد الكبرى إلى المدرسة شاكية ما قد أصاب جاد من جروح وكدمات ناتجة عن الصامولة/ الفيونكة•

مرت السنون، وبقي عندي سؤال لأستاذ عياد لا يتعلق بضربه لمحمد•

فقط أتمنى لو قابلته اليوم أن أسأله:
إنت جبت البرجل ده منين؟

٤ - شعبان والضغط العالي

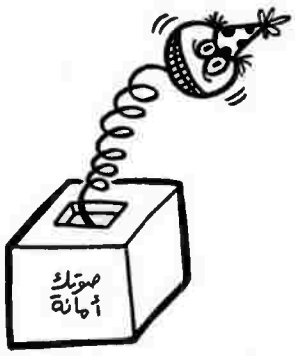

انتشر الخبر من الخلف للأمام حتى وصلني في الدكة الأولانية: زميلنا النحيف ذو القدمين المقوستين، رشح نفسه في الانتخابات التي كانت تجري على مستوى الفصل.

بادئ ذي بدء لم افهم أبدًا لماذا كانت هناك انتخابات في فصولنا الدراسية! هل كان هناك من يفكر في تعليمنا مباديء الديمقراطية مثلاً؟ أشك بكل ما لدي من طاقات الشك والريبة، فكيف لهذا أن يجتمع مع ما كان من مسابقات تنعقد لحفظ مقتطفات من خطب الرئيس مبارك؟

أذكر أنني تم ترشيحي ذات يوم بصفتي طالبا متفوقا في السنة الأولى

الإعدادية للخروج في إحدى هذه المسابقات على مستوى المنطقة التعليمية، وتم بالفعل إعطاء كل طالب نسخة من خطاب الرئيس في عيد العمال السابق عبارة عن مجموعة أوراق مزدحمة بكلمات كبيرة لم أفهم منها الكثير، ولم أحاول للأمانة أن أحفظها أيضًا.

لما جاء الموعد وذهبنا للمنطقة سألني الممتحن عن الأفكار الأساسية في خطاب الرئيس فلم أتمكن من الإجابة، لا أنا ولا أحد من زملائي. فقال لنا بعطف وحنو أبوي: انتو مش مذاكرين يا كلاب.

فلماذا إذًا كانت الانتخابات تجري؟
على الأرجح أن الحكاية على أيامنا كانت سَلَطة، كل وزير أو مسئول يدلي بدلوه، سواء كان لديه دلو أم لا، ثم يذهب ويأتي من بعده فيدلي هو الآخر بما لديه، وتتعدد الآراء والسياسات فينتج عنها تلك الخلطة العجيبة. على كل حال، كنا، نحن الطلبة، نستغل مسألة الانتخابات تلك في الحصول على مزايا معينة، وهذا ما دفع زميلنا لترشيح نفسه كمندوب رياضي عن الفصل، رغم أن لا علاقة له بالرياضة، ولا يعرف ان كانت الكرة مدورة أم مربعة.

هذا غريب، لكن الأغرب هو أنه فاز بالمنصب في انتخابات حرة نزيهة. ويبدو أن مسألة اقتصار الديمقراطية على الصندوق متأصلة في أذهاننا منذ زمن بعيد، فقد علمنا الأساتذة كيف نرشح أنفسنا للمناصب، وكيف نصوت لاختيار كل منصب، لكنهم لم يعلمونا كيف

نختار الشخص المناسب•

وكانت هذه هي النتيجة•

هل يذكرك هذا بشيء مما جرى في مصر بعد الثورة؟
على الجانب الآخر، كان هناك تقليد ينتمي فيما يبدو إلى زمن الاشتراكية السحيق ويسمى "الحكم الذاتي"، ومعناه أن يقوم مجموعة طلاب، كل يوم، بارتداء زي يشبه زي الشرطة العسكرية (كاب وشارة حمراء على الذراع) ويتحكمون في مداخل المدرسة ومخارجها، فيقف منهم اثنان على سبيل المثال على البوابة الرئيسية لتدوين أسماء الزوار، وكان يفترض أن يتم تناوب الطلبة على الحكم الذاتي، بحيث يحكم الطالب المدرسة حكمًا ذاتيًّا مرة واحدة أو مرتين سنويًّا•

لكن صديقاً لنا عاشقاً لكرة القدم اسمه محمد عمر ابتكر طريقة لم ترد على خاطر أحد حتى يزوغ من الفصل، ويصبح حكمًا ذاتيًّا كل يوم، فكان أن ذهب إلى أحد المحلات التي تبيع الكاب والشارة الحمراء واشتراهما من حر ماله، وأصبح يرتديهما كل يوم بعد طابور الصباح•

ويبدو أن الفكرة لبساطتها لم تلفت انتباه أحد من الأساتذة طول السنة وظل عمر "ابن المحظوظة" في حالة دائماً من الزوغان•

لكن بعد عدة ايام بدأ الملل يداهم عمر، ففكر أن يحاول إخراج زمرة من الأصحاب ليلعبوا معًا كرة قدم في حوش المدرسة، وهكذا بدأ المبدع الصغير محمد عمر التفكير في طريقة ليخرج بها من يؤنس وحدته، فذهب إلى الفصل في جرأة يحسده عليها أدهم الشرقاوي شخصيًّا ونقر الباب بأدب وجدية شديدين وقال للأستاذ الموجود في الفصل: "لو سمحت يا أستاذ، عاوزين المندوب الرياضي وفريق الكرة علشان عندهم تدريب".

وسط ذهولنا أشار الأستاذ، الذي لم يكن يعرف عمر، في قرف بالموافقة، وطلب من المندوب أن يخرج ومعه فريق الكرة، ولما لم يكن هناك فريق للكرة كان المندوب يختار الأحب إلى قلبه من الأصدقاء ليصحبه في تلك النزهة بعيداً عن أجواء الدراسة الخانقة، وقد أوغرت هذه الكوسة فيما يبدو صدور البعض كما سنرى فيما بعد.

بمنتهى النشاط والجدية أيضاً خرج المندوب وفريق الكرة في الحصة الثانية التي اختارها العبقري عمر بعناية ليتفادى الأساتذة الذين يعرفونه، أو أولئك المشهورين بالشراسة الزائدة عن الحد.

وطبعاً لم يعد أحد منهم إلى الفصل حتى نهاية اليوم الدراسي.

تكررت هذه اللعبة في الأيام التالية عدة مرات كل أسبوع كلما رأى

شرطة عسكرية

المايسترو عمر أن الوقت مناسب، والمدرس الموجود في الفصل على درجة من الوداعة واللامبالاة تجعل فرص النجاح كبيرة• وتماماً مثل خدعة الحكم الذاتي، لم يتم اكتشاف خدعة المندوب حتى نهاية العام تقريبًا حين حدثت الوشاية التي ضلع فيها على ما يبدو أحد الذين تجاوزهم المندوب في اختياراته مرة بعد مرة•

في ذلك اليوم المشئوم، جاء عمر كالعادة بكابه الأحمر وشارته طالبًا المندوب الرياضي فاستجاب الأستاذ، لكن تلك المرة كانت مختلفة قليلاً• ربما لأن استجابة الأستاذ كانت أسرع وأسهل من المعتاد•
لا أدري، كان هناك إحساس عام بأن شيئًا غير طبيعي يجري، لكن إغراء الكرة كان أكبر من الحذر، فنزل "الفريق" مندفعًا إلى الحوش بفرحة الطير الذي انطلق من محبسه، وتم تقسيمه إلى فريقين كما تقتضي الأصول، كل فريق يضم ثلاثة لاعبين، وجول "محاور" أي يسمح له بالخروج واللعب مثل لاعب عادي•

وما إن حمي اللعب، واندمج الجميع في المباراة حتى بدأ مجموعة من الأساتذة والفراشين يظهرون في وقت واحد، ويحيطون بالحوش من جميع الجهات•

لقد وقعنا في الفخ•
كان قائد الكمين هو الأستاذ شعبان، الذي صرخ محذرًا الجميع في حزم• ما حدش يحاول يجري• وبالفعل جمد الجميع في مكانه،

فبدأ الفراشون في القبض على الخارجين تحت إشراف أستاذ شعبان شخصيًّا، ومعه لفيف من الأساتذة.

ولكن شيئًا عجيبًا حدث، فهناك شخص آخر كان يساعدهم في السيطرة على مجموعة الأشقياء.

هل يمكنك تخمين من يكون؟
إنه العبقري محمد عمر، الذي تحول في لحظة، وبشكل تلقائي إلى معاونة الجانب الآخر في سلاسة جعلت الجميع لا يلاحظ أنه كان معنا في الملعب.

في غرفة تسليم الكتب كانت الحفلة.

عشر عصيان لكل واحد من المذنبين الذين وقفوا في طابور بانتظار العذاب الأليم.

كانت أداة التعذيب هي كابل كهربائي غليظ أحضره كلب في الفصل المجاور لنا وقبض الثمن من شعبان درجات أضيفت إلى "مجموع أعمال السنة". كان الكابل عبارة عن ضفائر من النحاس مكسوة بطبقة بلاستيك أصفر، وكانت الضربة الواحدة منه شافية وناهية.

حاول المندوب أن يتقدم سريعًا إلى قضاء الله لينهي على الأقل

عذاب الانتظار ويواجه مصيره، لكن شعبان ابتسم في وجهه ابتسامة بلون الكابل الكهربائي، وقال:
"لا، انت هتستنى للآخر علشان لينا حساب تاني".

وفي الآخر، كان الحساب الخاص الذي حظي به زميلنا المندوب الرياضي هو عشرين ضربة بالكابل على ظهر يديه. كانت كل ضربة تحمل غلاً وكرهًا حشدهما شعبان بكل ما يملك من قوة وأنزلهما على اليدين النحيلتين فلم تتركهما إلا متورمتين زرقاوين مع احمرار بنفسجي خفيف. وهكذا انتهى الزوغان في ذلك العام نهاية مأساوية، واعتزل عمر خوفًا من الوشاية، ولم يكن قد تبقى الكثير من السنة الدراسية على كل حال.

بعد تلك الواقعة السوداء بخمسة عشر عامًا قابلت صديقي المندوب الرياضي، وقد أصبح ممثلاً مشهورًا، فوجدته لم ينسها، بل ما زال يتمنى أن يذهب يومًا ليقابل أستاذ شعبان، لا ليسلم عليه كما في المثال الرومانتيكي الشائع أو حتى ليعاتبه، و لكن ليضربه علقة لا يبرأ بعدها أبدا.
ولكنه يعود ليتنهد ويقول:
يلا، الطيب أحسن.

٥ - أنت كـ"عبته" وصلاته!

كثيرة هي منح الرب، وكانت منحته الكبرى لنا في الصف الثاني الثانوي هي أن أرسل لنا الأستاذ جاب الله مدرساً للغة العربية وحاملاً للواء البلاغة والأدب في تلك السنة المجيدة (أقول إنها سنة مجيدة لأنها شهدت صعود مصر إلى كأس العالم عام ١٩٩٠).

كانت مدرستنا "ابن خلدون الثانوية بنين" ناراً على علم في الصياغة والبلطجة، يعرفها القاصي والداني في إدارة شرق القاهرة التعليمية، فقد كانت تضم في ذلك الوقت مجموعة متميزة من أبناء عزبة اللمون والخارجة بالمطرية والمناطق المجاورة في عين شمس وحتى حدائق الزيتون المشهورة باسطورتها "دبوس" وعصابته.

ولأن المراحل الأولى من تعليمنا كانت قد شهدت الكثير من التقويم والإصلاح لنا كأطفال أشقياء في حاجة إلى الإصلاح، فقد كانت رغبة الزملاء جامحة في رد الجميل لأساتذتنا، ممثلين فيمن يقع تحت أيدينا من ضحايا بعد أن اشتد عودنا وطال فرعنا.

كان هناك نوع من التحفز، بل التربص، بالأساتذة وإصرارا على أن نثبت لهم أن الصغار قد شبوا عن الطوق ويمكنهم الآن أن يلبسوه لمن يشاؤون.

وهكذا كانت ضحيتنا الأولى مدرسة تربية قومية صغيرة السن، رماها بختها الأسود بين أنياب من لا يرحم، وما إن دخلت للفصل حتى بدأ الصفير من كل جانب. حاولت أن تتجاهله والتفتت لتكتب على السبورة، فكان ذلك هو الخطأ الأكبر وتعالت الأصوات أكثر، فتوقفت المسكينة وقد قررت أن تملينا الدرس لنكتبه في كراساتنا (المتخيلة) وهي تظن أن في هذا حلاً للغليان الذي اكتسح الفصل وكأن الواقفة أمام الفصل رقاصة درجة تالتة وليست مدرسة محترمة.

وما إن بدأت في الإملاء حتى استوقفها "منعم" التختوخ الجالس في الدكة الرابعة مستوضحًا: إذا ما كان الصواب أن يكتب كلمة "الذات" بالذال أم "بزين" مشدداً على حرف الزين.

ضج الفصل ضحكًا من نكتة منعم التي كانت جديدة وجريئة آنذاك،

كما أنها شفت غليلاً في صدور القوم، وما كان من المدرسة إلا أن خرجت باكية، وهي تشكو ذلك الفصل "قليل الأدب" لمشرف الدور الذي أخذ قراره الحاسم ولغى الدرس، ولم نشاهد تلك الأستاذة مرة أخرى في المدرسة.

كان ذلك مجرد فتح لشهية أشاوس الفصل، الذين زاد حماسهم للمشاغبة، متأثرين كثيرًا بشلة المشاغبين في المسرحية الشهيرة.

وما هي إلا أيام قليلة ووصل الأستاذ جاب الله.

وهنا يجب أن أعترف أنه من الصعب أن أصف الرجل كما أذكره: كان شخصًا عجيبًا بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ، كان قصيرًا وضئيل الجسد بشكل ملحوظ، خفيف الشعر لا يخلع نظارته الشمسية داخل الفصل أو خارجه، ويرتدي دائماً بنطلون تشارلستون (رجل الفيل) أسود موديل سبعينيات لا يغيره وفوقه فانلة مونتيجو موديل سبعينيات أيضاً، وعلاوة على كل هذا يربي صف واحد فقط (حرفيًّا صف واحد فقط) من الشعيرات فوق شفته العليا ويطيلها حتى تتدلي قليلاً فوق فمه فيحتار الناظر هل هو بشنب أم حليق، ولطالما سرحت بعيداً عن الدرس وأنا أتأمل هذا الشنب ومعي رفاق الدكة عبودة وعلاء محروس.

أضف إلى كل غرائب الأستاذ لهجته العجيبة، والتي لا تفهم إن

كانت بدوية أم صعيدية، فقد كانت الكلمات وكأنها تتكسر قبل أن تخرج من فمه•

سارت الأمور مع أستاذ جاب الله في البداية على ما يرام فلم يلق إليه أغلب الطلاب بالاً وتركوه في حاله كما تركنا هو في حالنا، فكان يشرح، فلا نحن نسمع، ولا هو يهتم إن كنا نسمع، فكان هذا أشبه بميثاق سلام بيننا، إلى أن جاء يوم، وقرر أستاذ جاب الله أن يستعرض مهاراته التعليمية وإلمامه بالمنهج، ففتح الرواية المقررة علينا، وكانت "وا إسلاماه" من تأليف علي أحمد باكثير، وبدأ يقرأ منها الخطاب الذي استدر به قطز عطف شجرة الدر من أجل أن تتزوج مولاه عز الدين أيبك، فكان مما قاله قطز:
" أنت كعبته وصلاته"، يقصد أن شجرة الدر بالنسبة لأيبك هي قبلته و هي صلاته• وما كان من الأستاذ إلا أن وضع دائرة حول حرف الكاف في كلمة "كعبته" متحدياً كل من في الفصل أن يقول ما هي وظيفة الكاف في الجملة•

ساد الصمت الفصل قليلاً، فقد كان السؤال عجيباً غير مفهوم، فأثار الفضول عن غير قصد•

بدأ الجميع ينظرون لبعضهم البعض ولم ينطق أحد، و•••صدق أو لا تصدق: تنحنح أستاذ جاب الله، مقترحًا أن الكاف في كلمة "كعبته" هي كاف التشبيه••• وهنا صمت طويل•

بدأ البعض يحملق في السبورة وتاه في سراديب تلك البلاغة الجديدة، إلى أن قطع عبودة ذلك الصمت صائحًا: "لأ بقى، أنا ساكت من أول السنة بس كده كتير"، وبثقة مطلقة أشار إليه جاب الله أن يهدأ حتى يستطيع أن يشرح له كيف أن هذه الكاف هي كاف تشبيه، وهنا حدثت مفاجأة فجرت الموقف.

بغرابة شديدة، وبخلاف ما هو متوقع تمامًا، قرر أكثر طلبة الفصل هدوءًا وانعزالاً، والملقب بـ "طارق بلحة" أن يتعامل منفرداً ويقوم بالواجب منذ الدروس الأولى مع أستاذ جاب الله.

فترك مكانه وذهب إلى حيث يقف الأستاذ دون استئذان، وأمسك بالأستاذ من كوعه، وبدأ يهزه بمنة ويسرة كما لو أنه يمسك بدمية صغيرة، و هو يقول: إنت ايه اللي انت بتعمله ده؟ بتقول حاجات غريبة، وكلامك كله غريب.

ثم أمسك بأصبع طباشير لفه الأستاذ بورقة حتى لا تتسخ ملابسه متسائلاً: "وإيه اللي انت جايبه معاك ده ... دي السندوتشات بتاعتك؟"

بدأ تردد جاب الله على الفصل يقل بعد هذه الواقعة، وربما كان هناك من نصحه باتقاء شر "العيال ولاد الكلب دول" فلم نره سوى مرات معدودة حتى نهاية العام، و منح كل من كان في الفصل درجات أعمال السنة بسخاء شديد. أما طارق بلحة فربنا يكرمه كما كما أكرمنا. فقد

منحنا يومًا ضاحكًا لا أنساه في حياتي، ولكنه ضحك كالبكاء•

٦ ـ خواص ملكًا

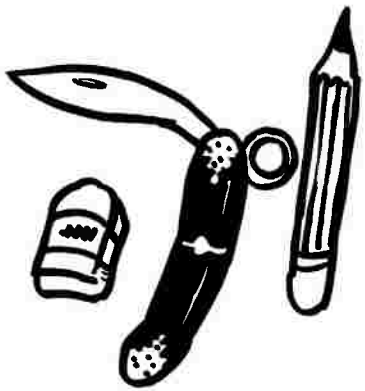

لمن لم يلاحظ، فقد وجدت نفسي أصوغ عنوان هذا الفصل محاكيًا عنوان المسرحية اليونانية الشهيرة "أوديب ملكا"، والتي تحكي حكاية الشاب أوديب الذي يفقأ عينيه بعد أن عجزتا عن كشف الحقيقة فبات لا لزوم لهما، لكن خواص كان ملكًا ليس على مملكة طيبة كما في المسرحية، وإنما على مدرسة ابن خلدون الثانوية.

ومحمد الخواص هو في الاصل مدرس تربية رياضية. لكن، وكما نعلم جميعًا، فإن المرتب وحده لا يكفي لذا فكان أغلب المدرسين الذين لا يترزقون من الدروس الخصوصية بسبب طبيعة تخصصهم يبحثون عن عمل بعد الظهر ليتمكنوا من الانفاق على أسرهم، ومثال ذلك أستاذ عزت مدرس التربية الرياضية بالحلمية الإعدادية، والذي

ورد ذكره في فصل آخر من هذا الكتاب•

أما خواص فقد اختار مهنة أخرى، وهي الخناق•

نعم، كانت مهنة الرجل التي يرتزق منها بعد الظهر هي الخناقات، فكان يؤجره من لا يملك عزوة كافية من أهل المطرية وضواحيها في الخناقات لمهاراته و"تخليصه" النضيف، بمعنى أنه يضرب ولا يقتل، فلا يترك مصيبة وراءه تلاحق من أجره وتجر عليه وجع الدماغ بدون داعٍ، وهذه هي فائدة التخصص والخبرة التي يدفع فيها المؤجر من حر ماله ويشتري عافية ومهارة خواص•

كان الرجل فيما يبدو ممارساً لرياضة كمال الاجسام فيما سبق وبدا هذا واضحاً على ملامح جسده الذي يشبه رقم ٧ باللغة العربية•

ما لفت انتباهي لخواص في أول يوم رأيته هي مطواة قرن غزال وضعها بكل ثقة وفخر في جيب بنطلونه الجينز الخلفي، وكان يتجول بها في المدرسة كنوع من الردع لمن تسول له نفسه الخروج على قانون خواص•

وللعلم فإن قانون خواص لم يكن يجرم الخروج على أساتذة الفصول، ولكنه كان يركز في الأساس على مكافحة الشغب، وتجريم تدخين السجائر في المدرسة، وكان هذا الجانب الثاني سببًا في حملات

عشوائية متكررة على حمامات المدرسة في الفسحة لضبط المخالفين الذين كان يبلغ عنهم "عصافير" خواص.

والعصافير هم الصف الثاني من المتعاونين مع الملك، والذين ينقلون الأخبار للصفوة القريبة منه، وهم مجموعة من الطلبة أصحاب المواصفات الإجرامية الخاصة الذين لا تقل أقدميتهم في المدرسةعادة عن خمس سنوات وهم سند الخواص ورجاله في الملمات، وكان هؤلاء الصفوة يبلغون خواص بالوشاية القادمة من العصفورة إذا لم يكن الولد المبلغ عنه من شلة أحدهم فيقوم بكبسة على الحمامات يرافقه مجموعة من رجاله ويخرج الضحية ليأخذ نصيبه من العقاب في ساعته وتاريخه وينتهي الموقف.

هذه الكبسات كانت مهمة لخواص من وقت لآخر لا لأنه يكافح التدخين، ولكن حتى يثبت أن وجوده مهم للحفاظ على النظام.

وكذلك كان من المهم أن يقدم من وقت لآخر ضحايا للإدارة البائسة حتى تشعر بأنها تحكم سيطرتها الوهمية على المدرسة (أليس من المدهش كم كان يتشابه نظام تلك المدرسة مع نظام مبارك؟)، ولهذا الداعي فقد قرر خواص بالاتفاق مع أحد حبايبه من طلبة الصف الثالث الثانوي أن يقوم بتمثيلية يقدَّم فيها الطالب لمدير المدرسة الأستاذ علي ياسين في طابور الصباح على أنه من المذنبين الواجب عقابهم، ويتم توبيخه على مرأي ومسمع من الجميع في طابور

الصباح• وقد حدث بالفعل أن جاء خواص بالولد الذي كان يترنح ويضبط خطوته بصعوبة مثل السكران وخطب المدير خطبة عصماء عن الشغب الذي يحدث في الفصول، وكيف أن الإدارة لن تسكت عليه أو تسمح به بعد هذا اليوم، لكن الجلالة أخذت أستاذ علي أكثر من اللازم ونسي نفسه فإذا به يخرج كرباجاً حقيقياً من وراء ظهره ويلوح به مهددًا بالعقاب كل من تسول له نفسه الخروج على الشرعية•

إلى هنا وكان من الممكن أن تمر الأمور بهدوء وسلام و يا دار ما دخلك شر، لكن الرجل فاجأ الجميع، بمن فيهم خواص نفسه، بأن استرسل في خطبته وتقمص شخصية الحاكم الصارم حتى أنه قال حرفيًّا: "اللي هيخرج على النظام من هنا ورايح لن يجد أمامه إلا سيفي هذا•"

ولوح مرتين بكرباجه ثم لسع به الطالب الذي بدا عليه الذهول للحظة وهو غير مصدق لما يحدث، ثم ما لبث ان انقض بدوره على المدير وقد انتابته حالة هياج وهو يردد: انت بتضرب يا ابن الـ••• خة•

وعبثاً حاول خواص ومعه لفيف من الأساتذة احتواء الموقف، لكن حدث ما لا يحمد عقباه وانتقلت عدوى الهياج إلى باقي المدرسة، فبدا الحوش في ثوان مثل سجن العبيد لحظة الثورة في فيلم سبارتاكوس•

بدأ الكل يجري في جميع الاتجاهات ولكن أغلب هذه الاتجاهات كانت تقود لباب المدرسة ومنه إلى الشارع•

كان يومًا تاريخيًّا شعرنا فيه بمعنى الحرية الحقيقي، ببساطة ألا تفكر في أي شيء مما يمكن أن يحدث في اليوم التالي أو حتى الدقيقة التالية، فقط إحساس يغمرك برغبة عارمة في الهروب من هذه الأسوار، ومن هؤلاء الناس الذين يقولون أنهم يعلموننا ويربوننا لكننا في الحقيقة لا نحبهم و لا يحبوننا•

في ذلك اليوم ذهبت مع بعض الأصدقاء إلى نادي الشمس للعب الكرة•

قضينا النهار كله نلعب ولم نفكر فيما حدث أو نتكلم عنه ثانية، فكان من أمتع أيام حياتي ولا زلت أدين بفضله للأستاذ محمد الخواص الذي كان وسيظل أسطورة المدارس الثانوية عبر الأجيال وحالة فريدة من نوعها ليس في مصر فقط، بل في العالم أجمع•

٧ ـقلم من؟ قلم عزت

في سنة تانية ابتدائي كنا نتعلم في درس القراءة: وجدت قلماً. قلم من؟

لكن القلم الذي أتحدث عنه هنا لم يكن قلم وجدته، وانما قلم تلقيته على خدي الأيسر مازال صداه يرن في أذني حتى اليوم بعد مرور ربع قرن من الزمان.

الأمر وما فيه أن شخصا ما، في مكان ما، في لحظة ما، قرر أن يقوم طلبة الصف الأول في مدرسة الحلمية الاعدادية باستعراض رياضي يقدمون فيه تشكيلات وتمارين للجمهور من أولياء الأمور ومسؤولي المنطقة التعليمية.

وبالتالي، تم تكليف الأستاذ عزت مدرس التربية الرياضية (الألعاب)

بهذه المهمة، وقد كان لها•

تم التنبيه على الأولاد بأن يشتري كل منهم شورت أبيض، وفانلة صفراء أو حمراء أو خضراء حسب مجموعته في الاستعراض•

وعن نفسي فقد اشتريت عدد ٢ فانلة، وليس واحدة فقط، حتى أستطيع أن "أبدل فيهم" حسب تعبير والدتي•

بدأت التدريبات المطلوبة، وكانت عبارة عن حركات رياضية، وتكوين لشكل نجمة يتحول إلى دائرة وهكذا•

اجتهدنا جميعًا قدر المستطاع، وبحسب سننا وخبرتنا المنعدمة في هذه الأمور، في أن نخرج أفضل ما لدينا في البروفات حتى نصل لمرحلة الإتقان•

وفي اليوم الموعود كانت البروفة النهائية، فكان يوم تفرغ من الحصص الدراسية حيث خصصته الإدارة للتدريب حرصاً على مظهر المدرسة•

وصل الأستاذ عزت وركن التاكسي الذي يعمل عليه بعد الظهر أمام الباب الخلفي كالعادة، ودخل مسرعًا إلى أرض الطابور وقد وضحت عصبيته•

بدأت التمارين، وكون الأولاد شكل الدائرة، ثم أشار أستاذ عزت الإشارة المتفق عليها فجرى كل منا إلى مكانه المحدد سلفًا لنكون شكل النجمة.

ويشهد الله أنني وقفت بالضبط في المكان الذي حدده لي الأستاذ، وكنت حريصًا جدًّا على ألا أخطئ، لكن يبدو أن الأستاذ قد غير رأيه أو ربما التبس عليه الأمر، لا أدري، المهم أنه اتجه ناحيتي وهو يزمجر: "يا أخي انت قرفتني، كل شوية تغير مكانك".

ولما كانت هذه هي المرة الأولى التي يوجه لي فيها لوما، فلم أصدق أنه يقول لي أنا هذا الكلام، وظننت بكل براءة أنه سوف يتجاوزني ويكمل طريقه لمن يقف خلفي في الصف، لكن ما حدث أن الرجل توقف أمامي مباشرة في اللحظة التي نطق فيها كلمة "قرفتني"، وهنا بدأ يراودني شعور غريب بأنني أحلم وأن صوت الأستاذ يجيء من مكان بعيد وكأنني داخل فقاعة صابون يأتيني الصوت مكتوماً وببطء أكثر من المعتاد ثم بدأ المشهد كله يتحول للحركة البطيئة، وأنا أشاهد الكف الضخمة ترتفع في السماء متأرجحة إلى الخلف لكنها تهوي في سرعة على نصف وجهي الأيسر الصغير، ولما كانت كف الأستاذ أكبر من مساحة نصف وجهي فقد طال أذني اليسرى التي أطلقت صافرة إنذار واحتجاج عالية.

كان الذهول يسيطر علي تمامًا، فلم أبد أي رد فعل سوى أن

الصفعة حركتني من مكاني خطوة أو خطوتين بفعل الصدمة.

ويبدو أنه هو أيضاً شعر بأنه بالغ في ردة فعله فلم يزد حرفاً بل وقف "فريز" لمدة ثانية كان الصمت سيدها، وانصرف بعدها مسرعاً كأن شيئاً لم يكن، وبدأ بصوته الجهوري في تحريك المجاميع مرة أخرى: هوب يلا ـ شمال اتنين تلاتة اربعة ـ يمين... بعد انتهاء العرض بعدة أيام قابلني أستاذ عزت على سلم المدرسة فابتسم في وجهي برضا، وقال: كنتو كويسين أوي في العرض... رفعت يدي محييًا: ربنا يخليك يا بيه، ده بفضل سيادتك.

كانت دروس النفاق قد بدأت تؤتي ثمارها بعد سنوات، فوجدت نفسي أردد مثل هذه الجمل أحيانًا، دون سبب محدد، ولا هدف عندي من ورائها، سوى تقليد الكبار واستبدال كلمة "أستاذ" بكلمة "بيه"، وهي من علامات النضج عند تلاميذ الإعدادية في زماننا، فكان من يستخدمها هم فقط الكبار الذين يحبون أن يطلق عليهم "طلبة" وليس "تلاميذ".

وكان قلم عزت الذي يرن في أذني قد فعل أيضًا فعله الساحر، فبدأ يضيف مع كل ما سبق بصمته على شخصيتي الآخذة في التطور للأكثر جبنًا و إيثارًا للسلامة.

في تلك المرحلة من العمر، كنت قد بدأت أتحول من الطالب

صاحب التفوق المبهر الذي يمتلك سطوة على كل زملائه إلى شخص أقل من العادي، يعامل معاملة سيئة، فتدنى مستواي الدراسي بشكل كبير حتى أنني واجهت خطر الرسوب في بعض المواد.

كانت البداية التي أستطيع رصدها لهذا التدهور، من اللحظة التي طلبت فيها أبلة عطيات مدرسة الرياضيات في سنة أولى إعدادي أن نخرج كراريس الواجب، ولما كنت غير معتاد من المرحلة الابتدائية على أن يسألني أحد عن واجبي المنزلي نظرًا لتفوقي المعروف فقد سرت على نفس النهج وتجاهلت أيضًا الواجب الذي طلبته عطيات.

فوجئت أن النظام في المرحلة الجديدة قد تغير تمامًا، وفوجئت مرة ثانية عندما طلبت عطيات من الأولاد الذين لم ينجزوا واجباتهم المنزلية أن يخلعوا احذيتهم لأنها "هتمدهم" على رجليهم.

في البداية رفضت، لكنها عدلت نظارتها الضخمة، ووجهت لي نظرة صارمة:
"لو ما قلعتش ما تحضرليش لحد آخر السنة".

ولست متأكدًا ما الذي أخافني إلى ذلك الحد من ألا أحضر دروسها حتى نهاية العام، فخلعت، وأنا لا أشعر بدموعي الساخنة حتى ابتل قميصي الأبيض منها.

لم أشعر بوجع الضرب على القدمين لكنني لأول مرة شعرت بإهانة هي التي دفعتني للبكاء بحرقة فترة طويلة• في مدرسة حلمية الزيتون الاعدادية، التي كانت أقرب لسلخانة أطفال كبيرة، تعلمت على مدى ثلاث سنوات أن أقبل الإهانة، وهذا ما أعانني على التفاعل بمنتهى الروح الرياضية مع قلم عزت فيما بعد•

أرجوك يا قارئي العزيز ألا تفهم من كلامي أن كل مدرسي المدرسة كانوا أوغادًا هكذا، فليس هذا صحيحًا، وليست تلك هي المشكلة•

المشكلة أن المدرسة كانت مليئة بآخرين هم مربون أفاضل، لكنهم جميعًا لم يكونوا يرون في تلك المعاملة ما يشين وربما رأوها ضرورية، والأكثر مرارة من هذا أن الغالبية من أولياء الأمور، آباءنا أنفسهم، كانوا لا يرون في هذه المعاملة بأسًا شديدًا•

ومازلت إلى اليوم أذكر أمهات وآباء بعض الطلبة في المرحلتين الابتدائية والإعدادية، خصوصًا الابتدائية ممن كانوا يذهبون خصيصاً للمدرسة "لتوصية" المعلمين بضرب أبنائهم لأنهم أشقياء ويسيئون الأدب في المنازل•

كان تدخل المدرس في أمور منزلية كهذه واستخدامه كأداة عنف "مشروع" يعتبر عرفًا محمودًا ومضربًا للأمثال•

وكان من المشهور جدًّا أن يترحم آباؤنا على الزمن الذي كانوا يخافون فيه من أساتذتهم، فإذا رأوهم خارج المدرسة بعد اليوم الدراسي يمرون من شارع، مضوا من شارع آخر تجنبًا ورهبة، معتبرين هذا من الاحترام الذي يدل على حسن الأدب وإكبار المعلم، ويمكنك أن تسمع هذا حتى اليوم في برامج التلفزيون من بعض كبار السن•

ومن المدهش ألا يتوارد إلى الذهن المصري هنا أنه يمكن للمدرس أن يقابل تلميذه خارج المدرسة فيحنو عليه، ويبتسم له، ويسلم عليه مثل أي إنسان آخر، فهذا أمر يمكن أن تجده مثاله في التراث الاسلامي أو الفرعوني ويمكنك أن تقرأ كيف كان يتم إسداء النصح للأطفال والتعامل معهم برفق ومحبة، فكيف وصلت العقلية المصرية لهذه التصورات الغبية التي جعلت اللعب واللهو حتى بعد الدراسة من المحرمات؟

ومن المشاهد الشهيرة في ذلك الزمن أيضًا أن يتفرق الأطفال في المناطق الشعبية عن اللعب إذا مر أحد أساتذتهم وقد رأيت أساتذة كثر يعيِّرون أولاداً بأنهم لا يذاكرون دروسهم ويضيعون أوقاتهم باللعب في الشارع، وكأنهم وجدوا مكانًا آخر للعب ثم أصروا على اللعب في الشارع•

لا أبالغ إن قلت أنني أنظر للأمر الآن باعتباره طريقة منظمة لهدم كبرياء الطفل وثقته بنفسه، وإقناعه مرة بعد مرة بضآلة شأنه وتفاهته، وأعتقد أن هذه الطريقة قد أتت بنجاح على ثقة كثير ممن أعرفهم في قدرهم، وما يمكنهم إنجازه، بل وردَّة فعلهم على امتهان

كرامتهم من قبل أشخاص أو مجموعات أقوى خاصة إذا كانت تمتلك السلطة، فهي المقابل في رأيي لما ورد في التراث الشعبي المصري من سوء معاملة قوات الاحتلال التي جاءت مصر على مر التاريخ لأبناء البلد واستخدام العنف معهم لاجبارهم على انجاز أعمال بعينها، فهل ورث المصريون هذه الطريقة وتوارثوها بعد أن ذهب عنهم المحتل؟ هل تمثلت الأجيال شخصية جلاديها فمارست القهر والعنف على الأجيال التي تليها؟ من زرع العنف في هذا الوطن؟

٨ ـ ولولة وطنية

أول ما عرفت الموت رأيت جدتي لأبي تخرج حافية من المنزل في مشهد مهيب لا ينسى لتودع عادل ابن أم جورج جارتنا إلى مرقده الأخير.

كانت جنازة عادل تمر أمام بيتنا من بعيد في الشارع العمومي، وغلبت جدتي عاطفتها فلم تكتف بالمشاهدة من وراء باب المنزل الكبير، وخرجت عدة خطوات لتقترب أكثر من الجنازة، واتكأت على شجرة الفيكس وهي تولول، كأنها أرادت أن يسمعها وهي تودعه: مع السلامة يا اخويا.

كان عادل شاباً في العشرينيات، لم أره أبدًا، لكنني عرفت أنه سقط

من فوق برج الكنيسة وهو يزينه باللمبات الملونة احتفالاً بأحد الأعياد المسيحية•

كانت هذه الحادثة هي أيضًا أول مرة أعرف معنى الحزن، وهي المرة الوحيدة ربما التي رأيت فيها شخصاً "يولول" بالمعنى الحرفي للكلمة•

كان سر التعاطف الكبير مع ابن الجيران هو صغر سنه، فلم تكن الناس قد تعودت في ذلك الوقت على فقدان الشباب•

وربما يكون بعض من يقرأ هذه الحكاية الآن يبتسم مترحماً على أيام "الوحدة الوطنية" الجميلة، فإن كنت منهم فاسمح لي يا أخي أن اصدمك صدمة عمرك، فما حكيته لك كان فيما يبدو تحركًا فطريًّا من سيدة عجوز تربت أيام الملك فؤاد وتزوجت في عهد فاروق• والدليل أنني أستدعيه الآن مدهوشًا، وأسأل نفسي كيف لم تؤثر هذه الحادثة فيَّ طفلاً وتعلمني شيئًا عن حب أبناء الوطن والأهل والجيرة بعضهم البعض بغض النظر عن دينهم!

ربما كانت الإجابة في الطوفان المقابل من الأقاويل المعادية للأقباط التي كنا نتلقنها من كل من حولنا ونحن صغار من الأولاد في المدرسة نقلاً عن آبائهم، ومن مدرسينا بالإشارة واللفظ حينًا وطبعًا في المساجد أحيانًا•

ومن خطباء المساجد من كان يزكي عن حنجرته برفع صوته قدرما يستطيع وهو يدعو الله أن اللهم عليك بالنصارى الذين يشركون بك، وكأن الله،سبحانه ينتظر تحريضًا من حنجرة كهذه ليخسف الأرض بمن ظلم•

أضف إلى ذلك ما كان يشيعه بعض الأولاد الأشقياء بصورة لا تنقطع عما يحدث داخل الكنائس من فجور وفحش يمارسه القساوسة•

كان هناك من أولاد المنطقة وزملاء الفصل متخصصون في نقل "أخبار الكنائس" وكأنهم متعهدون أو لنقل مراسلون متخصصون في هذا النوع من الشائعات دون أن يقولوا لنا كيف عرفوا هذه الأخبار إن لم يدخلوا الكنائس، وإن اضطر البعض لتأليف مغامرات وقصص تنتهي به داخل الكنيسة مع جار أو صاحب ليبرر ما يرويه من مشاهد حدثت ورآها بأم عيني رأسه•

ومن هؤلاء كذلك انتشرت بصورة غير عادية فكرة أن المسيحيين لهم رائحة خاصة منفرة، وهي من أكثر الأفكار التي زرعت في رؤوسنا شرًّا وخسة في رأيي•

لكن هذه الأفكار الخبيثةكانت تستهوي حس الشر الطفولي الكامن داخلنا في وقت لم نكن قد تعلمنا بعد معنى الصداقة، وكان المسكوت عنه قولاً أن ابن ملتي الذي أعرفه بالكاد هو أقرب لي من صديقي

المسيحي•

كانت هذه الفكرة تملأ الفراغ حولنا حتى لو لم تصغها كلمات صريحة، وإن كانت تحملها الكلمات إذا دعت الحاجة بوضوح لا مواربة فيه•

وقد أذكى هذه النار حادثة مشهورة في ذلك الوقت من حكم أنور السادات هي حادثة الزاوية الحمراء، وهي خناقة بين جارين أحدهما مسيحي والآخر مسلم انتهت بتحيز كل طائفة لمن ينتمي إليها فقامت معركة بالأسلحة النارية ربما كانت هي الأولى التي يشهدها المجتمع القاهري بهذا العنف فيما نعرف من التاريخ الحديث، وقد أحدثت شرخًا عميقًا لم يلتئم حتى هذه اللحظة بل اتسع بين الطائفتين•

وأذكر بحكم انتمائي للمسلمين أن أكثر ما كان يضايقهم ويستفزهم هو أن المسيحيين قد رفعوا رؤوسهم، ووصلوا إلى درجة من التبجح جعلتهم لا يقيمون وزنًا لما يميز المسلمين من أغلبية ساحقة•

كان هناك إحساس عام بأنهم قد تجاوزوا حدودهم ويجب تأديبهم إذا سنحت الفرصة ليعرفوا حجمهم الطبيعي•

بالتأكيد لم يشترك كثيرون في هذا الإحساس لكنني أستطيع أن أقول أن هذا كان نبض الشارع كما أذكره على الأقل في المنطقة التي

تربيت فيها على حدود المدينة، وهي نفس المنطقة التي شهدت بعد هذه الحادثة مباشرة نزوح كبير جدًّا للمسيحيين من مختلف مناطق القاهرة ومن الصعيد في حركة هجرة داخلية لعشرات وربما مئات الآلاف•

وأعجب كل العجب أن لم يتوقف عند هذه الهجرة المنظمة أحد في هذا البلد الأمين ليسأل عما يحدث، وإذا ما كان هناك سبب أن ترك هؤلاء بيوتهم وما يملكون و تنادوا إلى هذا الحي الذي أصبحت أغلبيته الساحقة منهم•

لكن أسوأ ما دفعتني إليه هذا الأجواء المشحونة بالتربص والاحتقار هي أن خسرت صديقي المسيحي الذي كان الأقرب لي•

كنت أخرج معه كل يوم فنذهب إلى بيته القريب فتستقبلنا أمه وتضع لنا طعامًا ثم نلعب قليلاً قبل أن أمضي في اتجاه البيت•

كان هذا طقسًا يوميًّا إلى ان تعاركنا يومًا مثل كل الأطفال، ومن منا لم يعارك صاحبه طفلاً، لكنني ما كنت أتوقع أن يتجرأ علي ويضربني كما ضربته، فاحمر وجهي وتملكني الغضب ورأيتني أصيح: عموماً أنا ما باصاحبش مسيحيين•

ثم حملت حقيبتي واتجهت مباشرة إلى بيتنا•

في اليوم التالي جاءت أمه إلى الفصل، وكلمت أستاذ مصطفى دون أن تنظر إلي كأنها لا تعرفني؛ لو مش عاوز يصاحبه هو حر، لكن ما يقولهوش كده.

تصالحنا أنا وصديقي بعد ذلك بصفاء الطفولة، لكنني لم أشعر بالراحة في بيته بعدها، وبدأت تلك الصداقة الأولى في التبخر قليلاً قليلاً حتى اختفت بعد عدة سنوات.

هكذا خسرت صداقتي الأولى لأنني كان لابد أن أخسرها يوماً وسط كل هذه الكراهية الصاخبة التي تحيط برأسي الصغير.

ومن بين كل هذا بقي بداخلي يكبر دون أن أدري ليطل برأسه من بين السنين مشهد جدتي وهي تبكي من خارج زماننا شباب جارنا القبطي الذي مرت جنازته من بعيد وكأنها تولول على وطن ذهب ولن يعود.

٩ - الفيل صديقي

تقول الأسطورة أن "دبوس" وضع ذراعه تحت القطار حتى لا يذهب للخدمة العسكرية، ولا يتم تجنيده.

ودبوس يا سادة لمن لا يعرف هو المعادل الموضوعي للفتوة في منطقة حدائق الزيتون في حقبة الثمانينيات قبل ظهور السيد زكريا عزمي في الحي واحتكاره للقوة وقضائه على جميع المنافسين مستعيناً بإيمانه، وحملات قسم الزيتون الشهيرة ببطشها وجبروتها.

ومن أهم مناطق نفوذ دبوس التي كنا نسمع بها هي محطة القطار أيضًا، وكأن عشقًا قد صار بين دبوس و بين القطار.
وكان لهذه الحكاية رهبتها لدينا نحن صغار الأحياء المجاورة كما كان

لنا مع القطار حكايات أيضًا•

والقطار القديم كان يصل بين رمسيس والمرج، ويذهب إلى مدينة شبين في القليوبية مرة أو مرتين في اليوم فيسمى في تلك الحالة "قطر شبين"•

ومن اللطائف الظريفة أنك إن كنت تريد الذهاب إلى شبين في ذلك الزمان لم يكن أمامك من وسيلة لتعرف إن كان هذا هو "قطر شبين" أم لا سوى الاستعانة بالشواهد البصرية المنظورة مثل تكدس القفف على الأبواب ثم سؤال الركاب في لهفة و سرعة قبل أن يتوقف القطار "رايح شبين؟" فإن جاءتك الإجابة بالنفي كان عليك أن تنتظر "اللي بعده"، وإن جاءت بالايجاب فعليك الجهاد فوراً للمكاتفة مع العشرات للوصول إلى الباب، ويكون الباقي علي الله والركاب الذين يحملونك حملاً إلى مستقرك ومستودعك النهائي داخل القطار•

وهذا القطار أيضًا هو المسئول عن وفيات كثيرة بين الأطفال في مدارس الاحياء التي نشأت على جانبيه، فقد كان الشريط بكامله مفتوحاً لعبور المشاة وكانت مدارس كثيرة منها مدرستي الابتدائي مطلة على هذا الشريط مباشرة، وهذا القطار كذلك هو المسئول عن أول فقد في حياتي وأنا بعد في الرابعة الابتدائية• صديقي هشام صلاح•

كنت أذهب كل عصر عند بيت هشام وأزعق عليه فيخرج لنلهو

مع ثالثنا محمد البرعي•

ولكن في ذلك العصر كان باب البيت مفتوحًا وأخوته جالسون على كراسي متجاورة أمام الباب وصوت يعلو بالقرآن من شريط تسجيل و ضع في مدخل البيت•

لم أجرؤ على الاقتراب وذهبت لبيت محمد الذي فتح الباب لي وقال بابتسامة (نعم بابتسامة): هشام مات•

ربما هي أكثر الابتسامات في حياتي غموضاً وغرابة• ما الذي يجعل طفل يبتسم وهو يبلغ آخر خبر وفاة صديقهما؟ كأنه نوع نادر من الخجل الطفولي في مواجهة حقيقة عارية بزغت أمامنا على غرة فقذفت بنا وحيدين سنوات بعيداً عن أعمارنا وفراسخ بعيداً عن واقعنا الذي كان منذ ثانية واحدة فقط مثالياً هادئًا، وغير قابل للكسر!!!

وبسبب هذه المآسي والأساطير المحيطة بالقطار، أصبح له رهبة خاصة في حيواتنا وباتت أكثر النصائح انتشاراً في ذلك الوقت سواء في البيت أو في طابور الصباح في المدرسة هي "أوعى تروح عند شريط القطر"، ومثل كل النصائح التي سمعتها في حياتي لم يسمع هذه النصيحة أحد، واستمرت الكوارث حتى دخول عصر المترو الذي عرف في البداية عند أطفال الضواحي باسم "مترو الأنفاس"•
في محاولة من العائلة لجبر كسور نفسي تم تكليف أخي الأكبر باصطحابي

في نزهة تساعدني على الخروج من كآبتي المبكرة• خرجنا من المنزل وأنا لا أعرف أين سنذهب تحديداً ولم أهتم بالسؤال•

بعد قليل استقللنا القطار ونزلنا في محطة حدائق الزيتون• صعدنا الكوبري المعدني العتيق لنصل إلى الرصيف الغربي ثم خرجنا من المحطة إلى ناحية شارع ترعة الجبل حيث توجد السينما، سينما الزيتون التي كانت دائمة التباهي بأنها تعرض "ثلاثة أفلام في بروجرام واحد"•

في المعتاد كانت تعرض السينما فيلمين فقط في الحفلة بغرض التوفير، ولم يكن هذا التصرف يلقى أدنى اعتراض من رواد السينما الذين كان منهم من يذهب للفرجة، وآخرون يرتادون المكان لأغراض أخرى مثل تعاطي المخدرات الشائعة في تلك الفترة، وأكثرها شيوعاً الماكستون فورت أو ما يعرف اختصاراً بالماكس•

لذا، كانت دورات المياه في السينما لا تخلو من سرنجة هنا أو أمبول مكسور هناك، كما قيل إنه كان بعض الشواذ من الرجال يرتادونها بحثًا عن شريك أو "ضحية" لكنني لم أشاهد هذا بنفسي•

المهم، أننا عندما وصلنا للسينما اشترى أخي تذكرة بخمسة وثلاثين قرشاً لكل منا، ودخلنا للقاعة التي كانت قد أظلمت بالفعل• لم يكن هناك من يدلنا على مكان جلوسنا، لكننا سرعان ما اكتشفنا من

خلال صيحات التهليل التي تطالبنا بالجلوس سريعًا "في أي حتة"، أنه ليس من مكان محدد لكل تذكرة وأن الجلوس بأولوية الوصول.

بدأت بعض الإعلانات تتوالى دون صوت على الشاشة الضخمة الباهتة.

بعد قليل بدأ صوت أزيز غريب ينتشر في القاعة، فأخذت وأخي نتلفت محاولين أن نتبين مصدر الصوت في الظلام، وسرعان ما كشف بعض الضوء المنعكس من الشاشة عن مصدر الأزيز لنتبين أن مواطنًا صالحًا قد قرر اصطحاب دراجته إلى داخل القاعة خوفاً عليها من السرقة.

مر الرجل ساحبًا الدراجة إلى أن وصل إلى نهاية الممر في نهاية القاعة من ناحية الشاشة، ثم ركنها على خشبة المسرح المرتفعة عن الأرض قليلاً، وجلس في الصف الأمامي، ثم أخرج من جيبه على الفور كبشة لب وسوداني وبدأ القزقزة.

بعد دقائق بدأ الفيلم الأول، وهو فيلم عربي من بطولة سمير غانم اسمه "مغامرون حول العالم" أو "المغامرون الثلاثة" لا أذكر تمامًا، لكن في الحالتين النتيجة كانت واحدة، وهي أننا لم نسمع شيئًا من حوار الفيلم نظراً للضجة التي لم تهدأ في القاعة بين بيع وشراء وناس تنادي على بضاعة وتفاهمات جانبية من نوع خاص.

هكذا مرت تجربتي الأولى مع الشاشة الكبيرة على غير ما يرام، وتلاها الفيلم الثاني في البروجرام وكان الفيلم " الفيل صديقي"•

وكما هو الاسم، كان الفيلم يحكي عن صداقة بين البطل والفيل الذي تربى معه في نفس البيت في الهند طبعًا•

وكانت الصداقة في الفيلم هي المحبة الخالصة والإخلاص الاسطوري الذي يجعل الفيل في النهاية يضحي بحياته من أجل صديقه الانسان•

في طريق العودة اصطحبني أخي لمحل عصير القصب في شارع نصوح حيث يقف قزم يبيع العصير ومشروب السوبيا واشترى لي "شوب سوبيا" كبيرا يطيب به خاطري الذي آلمه موت الفيل، وموت هشام، وبدا لي ونحن جالسان في القطار باتجاه المنزل أنه يحاول أن يسامرني بحديث ينسيني هشام•

وربما ظن أن الفيلم كان فكرة سيئة لأنه ذكرني بصديقي الراحل، ولعل ضميره قد أنبه على سوء اختياره للسينما نفسها•

ولكنني في الواقع لم أكن أفكر في هشام عندما خرجت من السينما ولا وأنا في القطار في طريق البيت• فقط كانت هناك دائرة سوداء معلقة أمام عيني••• ولم أكن أفكر سوى بالموت•

١٠ "عيش••• حرية••• في الصف يا ولية

كثيرون هم من تكلموا وكتبوا عن العيش عند المصريين، ماذا يعني في حياتهم اليومية ولم تحول اسمه الأصلي من خبز إلى "عيش" بما تحمله المفردة من دلالة، ولماذا يقدسونه لدرجة الحلف به!

فالمصري يمكن أن يقف في منتصف الطريق إلى عمله في ساعة الصبحية المزدحمة وينحني ليلتقط لقمة عيش على الأرض ويقبِّلها ثم يرفعها إلى جبهته دليلاً على الاحترام، ثم يضعها جانباً حتى لا تدوسها الأقدام•

كل هذا تناوله على شاشات التلفزيون وفي الكتب عشرات من المثقفين وعلماء الاجتماع•

لكن قليلين جداً هم من تكلموا عن طوابير العيش، ليس كظاهرة تعكس سوء أداء وزارة التموين المصرية، وإنما كطقس إجباري يومي يزاوله في الأحياء الشعبية الرجال والنساء والأطفال على حد سواء•

عندما بدأت أشب عن الطوق قليلاً واطمأنت أمي إلى أنني أستطيع الذهاب إلى الفرن البلدي والعودة للبيت دون أن أضل طريقي بدأت حكايتي مع العيش•

بالطبع لا أذكر اليوم الأول لي في طابور العيش، ولكنني أذكر جيداً الخناقات اليومية مع إخوتي حول من يذهب لشراء العيش، وكان كثيرًا ما تقع في "أرابيزي" مهمة الشراء لأنني كنت أول العائدين من المدرسة نظراً لأن مدرستي كانت ٣ فترات•

وكانت الفترة الأولى تنهي الدراسة في حدود الساعة الحادية عشرة ظهراً حتى تفسح المجال للفترتين الأخريين• ومعنى هذا أن أكون في البيت حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف لتقابلني الحاجة بإحدى الشنطتين: إما الشنطة الكبيرة الملقبة بـ "المركب" وقد أطلقت أمي هذا الاسم عليها نظراً لهيكلها الصلب، وشكلها الذي يشبه بالفعل القارب، أو الشنطة الشبكة•

غالباً ما كانت تصر على أن أصطحب الشنطة الكبيرة رغم يدها المقطوعة لأن العيش بـ "يتهوى" أحسن فيها بينما الشنطة الشبكة

بـ "تعَجن" العيش بتشديد الجيم وكسرها•

ووسط تبرمي كنت أصطحب الشنطة الكبيرة وأبدأ في رحلة تستغرق وقتاً لا يعلمه إلا الله، فالفرن تبعد حوالي خمس دقائق، ولكن الطابور يقصر أو يطول من يوم لآخر لأسباب مستعصية على القياس•

نظرًا لأن هذه العملية تتكرر بشكل يومي بين أبناء الحي، فقد كان من المنتشر أن يطلب منك شخص تعرفه أن تشتري معك خمسة أو عشرة أرغفة لحسابه بالذات، إذا كانت المعمعة كبيرة والطابور مزدحما بشكل كبير•

كانت تعليمات والدتي تقتضي ألا أشتري لأحد، إلا أنني كنت أتجاهل هذه التعليمات بسبب الحرج الذي كنت أشعر به عندما كان أحدهم يطلب مني أن أشتري له أو لها معي بضعة أرغفة•

أما في أيام الجمعات فكانت الأمور تتطلب نوعاً من اليقظة حتى لا يضيع العيش بين تكاسلنا وتكالب أهل المنطقة على الشراء بكميات كبيرة تكفي للمة العائلة في يوم الأجازة الذي يبدأ بإفطار يتكون لزامًا من الفول والطعمية، وبالتالي يكون العيش البلدي بديلاً عن سندوتشات الفينو في هذه الوجبة والتي تليها•

كميات العيش دائمًا أقل من الطلب، وكان ينفد على أقصى تقدير في الساعة الثانية ظهرًا، لذا فالكسل في يوم الإجازة له ثمنه الذي كنت ومعي أغلب أبناء الجيرة ندفعه وقوفاً و تدافعاً و تزاحماً، والفوز لمن استيقظ مبكرًا، ووقف في الطابور منذ ساعات الصباح الأولى في انتظار الخبيز فكفى نفسه شر القتال ومذلة السؤال•

في واحدة من تلك الجمعات استيقظت متأخرًا (حوالي العاشرة)، وكان الدور قد دار ووصلني فأصبح شراء العيش في ذلك اليوم من نصيبي• ارتديت جلابيتي الصوف البنية وأخذت "المركب" متوجهًا إلى فرن عبدالرازق•

مشيت لآخر شارعنا حيث كان يجب أن أنحرف يسارًا، ثم عدت بعد أن شنت كلاب أم جمال هجومًا غير مبرر علي، فعدت ومشيت من أمام بيتنا متخذًا الطريق الأطول و الأسلم من شارع الفريد•

بعد ناصيتين مررت بعم جابر الخضري الأقدم في المنطقة، والمفضل لدى والدتي، وكانت امرأته تبل الخس وترش الخضرة بالماء قبل أن تغطيها بقطعة كبيرة من الخيش المبلول لتبقى طازجة•

وكانت امرأة دائمة العبوس والشكوى، وكثيراً ما كنت أسمعها تتحسر على نصيبها، وتفضفض لمن تأنسه من نسوة الحي بأن "الصعايدة المرة عندهم مهما عاشروها تفضل مداس في ردليهم"، أي أن المرأة

تبقى عند الرجل الصعيدي، بعيد عن مقامكم، كحذاء في قدمه مهما طال زواجهما•

بعد قليل وصلت فرنة عبدالرازق، وتلقيت الصدمة عندما وجدتها كيوم الحشر، حتى إن آخر طابور الرجال كان يصل لناصية الشارع المقابل•

وكانت الفرنة حسب الأنباء التي تواترت عبر الصفوف ووصلت إلينا في المؤخرة متوقفة عن العمل لأن العمال يتناولون الفطور•

مر الوقت بطيئاً وقضيته أنا في مراقبة الخلق•

اقتربنا من وقت دخول الظهر وسمعنا الصوت الذي أحيى الأمل في صدورنا: هدير الفرن، وهي تشفط المازوت في نهم وتستعر في انتظار العجين• هَلَّ علينا صفوت بسحنته الكريهة من خلف المكتب الذي كنا نسميه "البنك"، وبدأ يمارس هوايته السلطوية في تنظيم صفوفنا، وهو يحمل بيد كوب الشاي الأسود مثل الحبر ويشير بالأخرى للمستضعفين من الأطفال والنساء بالوقوف في الصف في مزيج من اللا مبالاة و الاحتقار مجهول المصدر واضح التأثير•

بدأت الصفوف تموج بفعل إشارات صفوت الملعون، وبدأ الأولاد في الشجار حول أسبقية الوقوف، وكذا بدا الموقف في طابور السيدات

حيث كانت بعضهن قد استرحن على عتبة دكان مقفل بجوار الفرن وأردن أن يستعدن أماكنهن، وكانت هذه مسألة عادية تحدث كل يوم فكثير من الناس يؤمن من خلفه على مكانه بجملة متكررة نصاً وكأنها "سيم" متعارف عليه بين زبائن الفرن و هي : "أنا قدامك يا كابتن" أو "••• يا شاطرة" في حالة مخاطبة الأنثى الصغيرة فإن أشار من في الخلف برأسه علامة الموافقة يستطيع الزبون أن يستريح أو يذهب لقضاء مشوار سريع ويعود ليأخذ دوره•

لكن هذا السيم كان أحياناً لا يعجب البعض الذي لا يرى سبباً يجعله يقف حتى ينقطم ظهره بينما تتمرقع حضرتك يمين وشمال خارج الطابور أو تذهب لقضاء مصلحة هو أولى بها•

وبينما كان أغلب الذكور يتقبلون فكرة حجز الدور بروح رياضية كان النساء يرفضنها ربما بدافع الغيرة وكثيراً ما كانت تنشب مشاجرات بينهن لهذا السبب، وهذا ما حدث في ذلك الصباح، فقد أصرت إحداهن على أن تسترد مكانها بينما رفضت أخرى الاعتراف بحقها في الدور•

كانت الأولى سمينة وبيضاء شاهقة البياض، تدعى أم ياسر وهي زوجة محمدي العرباوي المعروف بأنه شخص شراني يحب أغلب الناس أن يتجنبوه، وكانت البنت الأخرى هي عايدة بنت اسماعين المقاول•

ويبدو أن سبب الاحتقان الذي أدى لرفض عايدة أن تسترد أم ياسر دورها في الطابور هو سبب قديم لا علاقة له بأحقية امرأة محمدي في الدور، ويعود في الأصل لما رددته أم ياسر منذ شهور في بعض الجلسات النسائية عن علاقة عايدة بنت اسماعين بشاب يدعى جابر فأسرتها عايدة، التي خطبها جابر فيما بعد، في نفسها، واستغلت الموقف لترد الصاع لأم ياسر•

إلى هذا الحد لم تكن المشكلة تستحق أن يقلق بشأنها أحد فعادة ما لا يلتفت الرجال كثيرًا ولا يتدخلون ما دام الصراع بين أنثى ومثلها، وكان هذا بمثابة "بروتوكول" بين رجال المنطقة حقنًا للخسائر التي تنتج عن الشجار بين الرجال، ولأن كثيرين منهم كانوا يرون في قرارة أنفسهم أن المرأة بطبعها هي مصدر الفتن والمشاكل ومن العقل أن يترفع الرجال عن مثل هذه المشكلات ما دامت لم تخرج عن طابعها الحريمي•

لكن ما حدث أن صفوت الأحمق قرر أن يتدخل لحفظ النظام في طوابير الفرنة، فانسحب من لسانه وصاح مثل الحمار الذي قرر النهيق فجأة، مخاطباً أم ياسر "اقفي في الصف يا ولية"•

هنا تغير الموقف تمامًا، والتفتت أم ياسر وقد احمر وجهها للرجل الذي أدرك متأخرًا أن لسانه قد ساقه بالفعل لمأزق كان في غنى عنه، وأمطرته بوابل من التقريع بداية من "ولولو عليك ساعة وسكتوا"

وصولاً إلى سيل من الأوصاف التي أثارت ضحك كل من في الطابور مثل: "قفة –مقطف– قفل" ومثل أي صعيدي لم يتحمل صفوت أن توجه له امرأة إهانات كهذه حتى لو كان هو البادىء بالغلط، فما كان منه إلا أن قفز في من فوق البنك ليصبح في ثانية واحدة وسط طابور السيدات و تقع الواقعة السوداء التي لم يتوقعها أحد: رفع صفوت يده في لمح البصر و نزل على خد أم ياسر بكف ترك عدة خطوط في وجهها الأبيض المربرب.
تلا ذلك لحظة من الجمود في المكان.

سكت الحشد عن صخبه والتفتت الرؤوس في اتجاه الصوت الذي سمعه الجميع كما سمعته وبدا الذهول على الوجوه.

ربما تدافعت آلاف المشاهد في ذلك الجزء من الثانية من عالم الخيال إلى عقول الواقفين في محاولة لتصور ما يمكن أن يحدث في المستقبل القريب جدًّا بناءاً على ما حدث.

بدا واضحًا للكل أن هناك خطا أحمر قد تم تجاوزه وانتهى الأمر، وشعرت -وأجزم أن هناك من شاركني الشعور- بالخوف لمجرد أنني كنت هناك في تلك اللحظة وشاهدت ماحدث.

انتابتني رغبة في أن أختفي من المكان وبالفعل فقد بدأت في التحرك دون أن أنتظر لأشاهد أية لقطات أخرى من المشهد الاستثنائي

فقد كنت دائمًا، والفضل لأبي، أتمتع بحس أمني هائل يجعلني أنزع دائمًا للابتعاد عن بؤرة المشكلة بأقصى سرعة، ولوعلى حساب فضولي، بعكس أغلب أصدقائي من هواة الفرجة على الخناقات والمشاكل•

ومع ذلك فقد لمحت من بعيد أم ياسر وهي ترقع بالصوت الحياني وتشير لبعض الأطفال ناحية بيتها في تكليف مباشر لهم بأن يلعبوا دور رسل الحرب في استدعاء عاجل وفوري لأبو ياسر ومن تيسر من رجال العائلة، فتوقفت أراقب من مسافة بعيدة آمنة•

ولأول مرة تصرف صفوت الصعيدي بحكمة فهرب من فوره واختفى من المنطقة كلها، ولكن فرن عبد الرازق وعبد الرازق نفسه هم من دفعوا ثمن غلطة صفوت، ففور وصول المدد، الذي لم يستغرق سوى دقائق لامرأة المحمدي توقف الكلام، وحل محله الفعل، فهجمت صفوف من شباب العائلة في المقدمة تحت إمرة الكبار المخضرمين فكان الشباب يضربون بالشوم والعصي كل من وجدوه في أو أمام أو بجوار أو في محيط الفرنة دون تمييز، بينما الكبار يوجهون من الخطوط الخلفية بملاحقة هارب من فلول العجانين أو معاجلة مهاجم من الخبازين أو الشيالين•

ولم تستغرق المعركة أكثر من ربع الساعة هرب بعدها كل عمال الفرن وتركوه مشتعلاً وبداخله أرغفة أخذت في الاحتراق وبدأ دخان كثيف في الانبعاث بينما تمت محاصرة عبدالرازق نفسه الذي تحصن

داخل الحمام البلدي•

حاول المهاجمون إخراج صاحب الفرن من مخبئه عن طريق الطرق المستمر على الباب، وكأنهم قرروا معاملته معاملة الوطواط لكن الرجل استمسك بالعروة الأخيرة إلى أن بدأ الملل يتسرب لجموع فبدأوا في شتيمة السيدة والدته وأجداده جميعاً فكان هذا إيذاناً بيأسهم منه وقرب رحيلهم•

لكن وسط كل هذا لم يلتفت أحد للفرن التي بدأت فجأة تطلق قرقرة غريبة لم يسمعها أحد من قبل ثم تكاثف الدخان بشكل مطرد، ومتزايد فعبأ المكان في ثوان معدودة، وبدأ الكل في التراجع تحسبًا لما يمكن أن يحدث•

هرب المحمديون، وفر جمهور المشاهدين متفرقين في كل اتجاه، ومن بين الدخان الأسود ظهر عبدالرازق واضعاً ذيل جلابيته دخل اللباس الصعيدي، وظننت أنه سوف يستغل ذلك الهرج ليهرب قبل أن يمسكوا به، لكنه على العكس وقف أمام الفرن التي بدأت النيران تنتشر داخلها وتأكل ركام الأخشاب المتناثر في كل أركانها، وبدأ يصيح كالذي به مس من الجن وهو يحاول أن يفعل شيئًا لا يعرف بالضبط ما هو•

كان الجميع الآن قد وقفوا في حالة من الترقب وكأننا جميعًا في

انتظار لحظة انفجار المكان، وكأن شيطانًا صغيرًا بداخل كل منا يريد أن يرى هذه اللقطة المثيرة من الفيلم، أو ربما كان كل واحد في هذه الجموع يحمل كراهيته الخاصة لفرن عبد الرازق•

غلبت هذه الشهوة الشريرة على الجميع فلم يتحرك منا أحد للمساعدة، بل إن عائلة المحمدي لم تمد يدها بسوء لعبد الرازق الذي كان يقف أمامهم الآن، وهم من كانوا يريدون الفتك به منذ دقيقة واحدة، وكأنهم رأوا في احتراق مخبزه لحظة انتقام لكبريائهم تستحق الفرجة•

ولم يضن علينا الشيطان الصغير بما تشوقنا إليه، فما هي إلا لحظات وارتفع صوت القرقرة ليتحول إلى صوت مثل قرع الطبول•

تراجع الجميع في نصف دائرة توسطها عبدالرازق، ثم دوى الانفجار الهائل تقدمت كرة من النار من عمق الفرن وشقت طريقها وسط الدخان إلى الباب الأمامي ثم تلاشت بمجرد أن لامست الهواء، تبع ذلك انفجار ثان ألقى بحطام خشبي خارج منافذ الفرن ومعه دخان أبيض هذه المرة مخلوط بالدقيق•

كانت الفرن كأنها تتقيأ ما داخلها وتلقي بكل ما تستطيع إلى الخارج•

شبعت، وشبع الناس من الفرجة على النار وهي تتسلى على ما تبقى داخل المبنى المتهالك شيئًا فشيئاً قبل أن تصل عربة المطافئ ويبدأ رجالها في البحث عن حنفية لتكون مصدرًا للمياه ليبدأوا الاطفاء.

بدأ الناس في التفرق متثاقلين وقد ساد الشارع هدوء غير مفهوم واختفى أبطال المسرحية من الساحة؛ فأبناء المحمدي قد انصرفوا مظفرين وعبدالرازق نفسه تبخر في غموض و لم يره أحد سوى بعد هذه الحادثة بشهور.

فهمت فيما بعد أنه كصاحب فرن يعلم أنه يتحمل مسؤولية ما حدث أمام السلطات، ولذا خاف أن تقبض عليه الحكومة و"تعمل له قضية" حسب التعبير الشائع.

أما أنا فقد بدأت طريق عودتي للبيت وقد راحت السكرة وجاءت الفكرة، فهناك علقة محتملة الآن نتيجة لوقوفي للفرجة على ما لا يخصني وتضييع الوقت بينما الكل ينتظر العيش، والأدهى والأمر أنني في النهاية رجعت بالمركب فارغة، والأفران الأخرى ستكون قد أغلقت الآن بالتأكيد.

وصلت لمدخل شارعنا، وأنا سارح في أفكاري السوداوية عندما لمحت أخي الأكبر قادمًا نحوي بسرعة.

فهمت منه أن خبر الحريق قد وصلهم فأرسلته أمي للاطمئنان علي• اصطحبته ومررنا من أمام كلاب أم جمال التي لم تصدر الهوهوة المعتادة عندما أمر أمامها وحيدًا، وعلى باب البيت وجدت أمي وعلى وجهها علامات الغضب والقلق•

مددت يدي بالجنيه الورقي فانتزعته مني بعنف وهي تشدني لداخل البيت: "خش دا أبوك هيموتك"•

بعد قليل كنا حول طبلية الغداء، وقد أفلت من العلقة بشفاعة قلقها علي من الحريق، وكالعادة انتظرنا حتى وصل والدي الذي جلس ملقياً السلام وتوسد الشلتة التي ترفعه من على الأرض قليلاً ليتمكن من طعامه، أمسك بملعقته في وضع الاستعداد، وجال بعينيه بين الصحون وحولها ثم سأل السؤال الذي كنت أخشاه: "أمال العيش فين؟"•••

١١ ـ حكم السيد بعثة

في تلك الأيام الصافية، كنا نلتقي مساء كل جمعة، صحبة من الأصدقاء لا هم لهم سوى الضحك وبعض المتع البريئة المصاحبة المتمثلة في حجر معسل أو حتى كوب سحلب في ليلة شتوية لم تمنعنا شدة بردها من الاجتماع فيما أطلقنا عليه "مجلس العشائر".

وفي سبيل الضحك، كانت المساحات الشخصية الحميمة تباح عن طيب خاطر لمشاركة الجماعة، ومن ذلك حديث بعضنا عن ذكرياته المدرسية التي غالباً ما تكون مثاراً للإحراج، فقد كانت مدارسنا تتميز عن جميع مدارس الدنيا ـ فيما أظن ـ بعداوة بالغة بين المدرسين

والطلبة، حتى إن بعض آبائنا المعلمين كانوا يستخدمون في قمع الطلبة (المسالمين غالبًا بسبب طفولتهم المنكسرة) أدوات تم تصنيفها من قبل جمعيات حقوق الإنسان كأدوات تستخدم في جرائم التعذيب مكتملة الأركان، ومن ذلك كابلات الكهرباء والجنازير وأحياناً الكرابيج•

إلا أن قمعًا آخر أكبر كان يمارس خارج أسوار مدارسنا، ونحن في طريقنا إليها صباحًا أو في طريق العودة الملهوفة إلى المنزل•

كنا نواجه كثيراً من الرزالات وربما عمليات ما يسمى بالـ "تقليب" الذي كان منتشراً بقوة في مناطق القاهرة العشوائية ومنها عزبة النخل التي تربينا فيها•

ويعني مصطلح التقليب أن يستوقفك شخص ما أكبر منك سنًّا في الأغلب، ليأخذ ما معك من نقود وخلافه تحت تهديد السلاح الأبيض•

وإذا كان حظك سيئاً فربما لا يكتفي بالنقود، وقد يحلو له بعض العبث بطفولتك البريئة انتقاما لبراءة طفولته المهدرة، لذا فكان من الأسلم دومًا إسراع الضحية بإخراج النقود سعيًا لإنهاء الموقف بأقل قدر ممكن من الخسائر•

كان صاحبنا خفيف الدم يكاد يفرغ من حكايته عن واحد من

المراهقين الخطرين استوقفه وهو في طريقه إلى المدرسة الإعدادية في المرج، والتي أطلقنا نحن عليها المرج دييه، وقرر أن يمارس بعض التدريبات الإجرامية الصباحية على أخينا "أبودم خفيف"، فرفع مطواته أمام وجهه بيده اليمنى، وأمسك خصيتيه باليسرى سائلاً "إيه دول يلا؟"

ابتسم أخونا ابتسامة بلهاء امتزج فيها رعبه ودهشته بمحاولة يائسة لخطب ود المجرم الصغير لعله يعفو عنه ويعتبر ما كان مجرد مزاح بين أقران، لكن أخانا أفاق من حلم الهروب الكبير على "قلم" نزل على خده الذي أخذ في الاحمرار مثل الطماطم في موسم الحصاد.

بعد عملية تفتيش دقيقة أسفرت عن مصادرة الشلن الفضة الذي كان قد أخذه من والدته قبل دقائق، سمع أخونا المذهول صوتًا صارخاً في البرية المرجاوية يقول: " عارف لو شفتك في الحتة دي تاني يا ابن الشر.."

لم ينتظر أخونا اكتمال الجملة التي اعتبرها ايذانًا من المجرم الناشيء بإطلاق سراحه، وكان المعنى المسكوت عنه في باقي الجملة قد وصله تماماً، فاستدار في حركة رشيقة، وأطلق الريح من بين ساقيه قبل أن يطلقهما للريح.

جاءني أخونا في مساء ذلك اليوم المشئوم، وخبط على باب بيتنا

الحديدي الذي كنا لم نتم طلاؤه بعد لأسباب اقتصادية استمرت حوالي العشرين حولاً، فبقي على اللون البرتقالي الفاقع للطلاء الأولي المسمى بالسلاقون•

خرجت أمي لتفتح الباب، ومن هناك ندهت فخرجت لأقف مع صاحبي على ناصية شارعنا، وهي الوقفة المفضلة لشباب المنطقة وصغارها لأننا ببساطة لم نكن نعرف أي مكان آخر نذهب إليه، وكانت تقاليد الطبقة الوسطى التي أنتمي إليها تضع الجلوس إلى المقاهي على قائمة المحظورات•

لم تطل وقفتنا كثيراً حتى حكى لي أخونا ودموع المهانة تملأ عينيه عما حدث في الصباح•

ثم سكت بعد أن وجدني ملتزمًا الحياد، لا بداعي النزاهة وإنما لأنني كنت أكثر جبنًا من التعليق على هكذا حادثة•

كما أن تعليمات أمي المشددة هي الابتعاد عن المشاكل لأننا نسكن "وسط عالم مجرمين"• وأرجو ألا تسألني لماذا جاءت أسرة محترمة تسكن وسط عالم مجرمين لأنني لا أعرف، وأغلب الظن أن أمثال أسرتنا جاءوا أولاً إلى تلك المنطقة الواقعة على أطراف المدينة، ثم جاء "العالم المجرمين" بعد أن لفظتهم أحياء القاهرة القديمة وأقاليم الصعيد والوجه البحري، وزحف بعضهم من المناطق الصحراوية

القريبة مثل بلبيس ليشكلوا خليطًا غير متجانس من عدة طبقات اجتماعية من الخطورة أن تعيش معًا في جوار واحد لأن النتيجة هي أن "أخونا" فقد الشلن بعد أن كاد يفقد معه عذريته•

بعد فترة الصمت التي حاولت خلالها رسم علامات الغضب على وجهي من باب المجاملة الإنسانية، نطق صاحبي أخيرًا وعلى وجهه من علامات التحدي والثقة ما يذكرك بأنور وجدي في "أمير الانتقام"
-أنا هاروح للجندي يجيبلي حقي••• جاي معايا؟

لا نستطيع أن نعتبر انقطاع الكهرباء من المنطقة في تلك اللحظة معجزة سماوية لأن شرط المعجزات الندرة، وقد كانت الكهرباء تنقطع عندنا لعدة ساعات كل عدة ساعات، ولكن يمكننا القول أن رحمة السماء نزلت علي شخصي الضعيف في تلك اللحظة حتى لا يرى أخونا الدم وهو يهرب من خلقتي ليتركني مصفرًا محتارًا في الرد المناسب على السؤال الذي جعل موقفي غاية في الحرج•

كانت موافقتي تعني مخالفة تعليمات أمي، وما يتبع ذلك من عواقب لا يمكن حسابها قد تؤدي للفتك بمؤخراتنا، لكنها في الوقت نفسه كانت فرصة تاريخية لن تتكرر لمقابلة الأسطورة التي أبهرت المنطقة بأكملها لسنوات: الجندي•

هو الهارب من عدة أحكام••• الرجل الذي قتل صديقه المقرب

وساعده الأيمن "حمامة" في عز الضهر بعد أن رشق مطواته في قلبه، ثم ضربه بالقلم•

يالله ••• هل يمكن رفض مثل هذه الإثارة؟
على الجانب الآخر كان الرفض يبقيني كما أراد لي أبي و أمي "كافياً خيري شري"، وبالتالي في وضع أكثر أمنًا، لكنه يصمني أمام صاحبي بالجبن و النذالة، ولا شك أنه سوف لن يحتفظ لنفسه بهذا الرأي، وسيقوم بالتشهير بي في جميع أوساط شباب الحتة• فهل يمكن احتمال هذا العار؟

كنت لا أزال أفكر وأزن الأمور في حذري الموروث عندما لم يحتمل لساني وطأة الانتظار، فانزلق بقولة آه•

كان الذهاب للجندي طلباً للتحكيم في قضية الشلن الفضة جرأة من صاحبي، لكنه تشجع على تلك الخطوة محتميًا بجيرته لواحد من رفاق الجندي القدامى، وهو جمال الجوكر الذي أرسل للجندي معنا تحية خاصة يعرف بها أننا من طرف صديق قديم، ويقوم بالواجب معنا•

يمر الطريق إلى بيت الجندي بمصرف كبير لمياه المجاري يسمى "الرشاح" كان الناس قد اعتادوا إلقاء زبالتهم فيه لتسبح إلى جوار مخلفاتهم الحيوية، كما كان بعضهم يصطاد منه سمك القرموط

ليبيعه في سوق الثلاثاء بالمرج، وكنت أسمعهم يقولون أن أحسن سمك تاكله هو "قراميط الرشاح"•

وعند نهاية الرشاح كان قصر الملكة نعمت• لم نكن نعرف من هي نعمت، لكنه كان قصرًا حقيقيًّا أسواره الحمراء العالية تداري حدائق البرتقال التي تداري بدورها المبنى الملكي الكائن في نهاية الطريق الترابي الذي يبدأ عند البوابة السوداء العملاقة•

كنا كلما عبرنا من هناك، اقتربنا من البوابة لنتلصص من بين فتحاتها على ما يدور بداخل القصر، وفي أحيان نادرة كنا نرى شخصاً يروي بعض أحواض الورد أمام السلم نصف الدائري الصاعد إلى المبنى في وقار وفخامة، لكننا أبدًا لم نر أي شخص يدخل أو يخرج من القصر، وكأن ساكنيه قد خاصموا الدنيا فلم يعرفوا أن حدائق الفاكهة التي كانت حولهم قد تحولت إلى أرض جدباء، وأعمدة خرسانة، و بيوت عارية القبح••• ورشاح•

انتهينا من سور القصر، ودخلنا إلى طريق الخصوص الذي كان يثير في الكآبة بالبوص النابت على جانبيه، وترابه الناعم الكثيف الذي كان يثور لأقل حركة فيسد الأنوف، ويتسلل ما بين أصابعي فيجعلني أضرس•

عبرنا السكة الحديد إلى أرض السوق، وكان بعض الفلاحين لا

يزالون يعرضون خضارهم الطازج فوق عربات الكارو التي أتوا بها من القرى القريبة، وقد فشل قرب المغيب في إقناعهم بمغادرة السوق قبل أن ينتهوا من بضاعتهم.

من بعد السوق دخلنا إلى المساكن، وتلوينا مع الحارات الصاعدة الهابطة إلى أن وصلنا حارة لا يزيد عرضها عن المترين، تفترش جانبًا منهما سيدة عجوز في ملابس سوداء كالحة، أمامها قفص دوم وعسلية يقصده أطفال الحارة كلما ظفر أحدهم بقرش أو تعريفة.

كانت تلك هي حارة الجندي المسماة على اسمه، وقبل أن نصل إلي منتصفها استوقفنا شاب نحيف ضئيل الجسد، في منتصف مراهقته، وقد وقف ثانياً رجله خلفه واستند بها على جدار نصف مهدم التحم مع كوم من الزبالة وراءه وأشار إلينا بطرف يده الممسكة ببقايا جوان البانجو:

-رايح فين ياد يا معر.. انت وهو؟

ابتلعنا الإهانة وكأننا لم نسمعها من الأصل، حيث كنا نعرف جيدًا أنه لا يجب أخذها على محمل شخصي، حرصًا على روحنا المعنوية لا أكثر، ورد صاحبي بثبات:
-احنا عاوزين الجندي، جايين من طرف جمال الجوكر.

نظر إلينا الشاب نظرة هادئة متأنية، وأدخل يده في قميصه نصف المفتوح، ثم فرك صدره قائلاً:

-خليك واقف هنا زي ما انت.

استدار بعدها متجهًا في تثاقل إلى حارة فرعية أضيق لم نكن قد لاحظنا وجودها، وهو يثير التراب خلف شبشبه الزنوبة أبو صباع...

بعد دقائق أخرج الشاب رأسه من الحارة الفرعية وأشار إلينا فتبعناه بنشاط في خطوات حماسية حيث قادنا إلى حوش يضم عدة غرف وسلمًا حجريًّا متمايلاً بلا أسوار يقود إلى السطح، حيث أطلت مجموعات من البط والفراخ البلدي في صحبة معزة بنية صغيرة تراقب حفلاً اتخذ من الحوش مسرحًا له، حيث تحلق الحضور حول الساحة جلوساً على بعض الكراسي الخشبية، كما أن بعضهم اتخذ من السلم الحجري منصة تسمح له بمشاهدة أفضل للرقصة التي يقدمها شاب ذو وجه طويل ومنخار أفطس وشعر مفلفل "خواتم" كما كانت تقتضي الموضة في ذلك الوقت.

فتح الوجه الطويل مطواته وأخذ يضرب بها وسطه مرة ورأسه مرة وهو يفتعل بملامحه تشنجات وكأنه يتأذى من الضربات التي كان في الحقيقة يسددها بباطن نصل قرن الغزال وهو يردد فرحاً متهللاً أغنية لم أسمع بها من قبل ولا من بعد، مطلعها يذكر أعضاء حساسة من جسم والدته. كان يرفع صوته الأخنف وينغمها: "كـ... أمي" فيرد عليه الجميع رجالاً ونساء في نَفَس واحد "كـ... أمك" وكأنهم جميعاً يحفظون تلك الأنشودة التي أظن أن الوجه الطويل ابتكرها من وحي نشوة اللحظة.

في اللحظات التي قضيناها في انتظار إذن الدخول إلى الجندي بدأت تعلو صيحات الاستحسان تطالب بمزيد من الغناء المبتكر:
-"كـ.. أمك... يا اسكندر"

يا إلهي•

لابد أن صاحب الوجه الطويل هو أحمد اسكندر بشحمه ولحمه، أحرف من أمسك مطواة في المرج وعزبة النخل وضواحيها• يا لها فعلاً من صدفة رائعة جعلتنا نشاهد هولاء النجوم عن قرب• والجميل أن المزاج المجتمعي العام كان رائقًا ومحتفيًا بالمناسبة التي عرفت فيما بعد أنها كانت "حنَّة" اسكندر نفسه•

أخيراً جاءنا الإذن، فعبرنا ساحة الحوش إلى ممر ضيق تحت السلم على جانبيه عدد من الغرف لم يكن موقعنا الأول يسمح لنا برؤيتها•

أمام إحدى هذه الغرف توقف دليلنا ودفع الباب برفق فكشف عن حجرة واسعة مستطيلة نصف مظلمة•

في مواجهة الباب كان الجندي يجلس فوق كنبة بلدي عاريا إلا من شورت رياضي أصفر قصير•

وكان كل ما رأيته فيه خلاف كل ما تصورته عليه• ملامحه سمراء هادئة، بل بالأحرى منهكة، وذقنه النابتة تلقي على وجهه شيئًا من علامات الخشوع، وتجعل له نصيبًا من سمت أهل الله الذين أنعم عليهم بسلام الروح•

لكن أثر جرح يمتد من فوق أضلعه حتى قرب سُرَته كان يشي بأن الله لم ينعم عليه بسلامة الجسد•

لم يطل الحديث مع الجندي أكثر من دقائق، كان صاحبي فيها منبهراً بالحضرة الأسطورية، وكنت كذلك، لكن ما لمحته في نهاية الغرفة أخرجني من ذلك الجو المهيب، فخلف ستارة نصف مطوية منقوشة بورود حمراء وصفراء••• كانت تجلس على الأرض تفرك بعض الملابس الرجالية في طشت أمامها، وقد أحاطته بساقيها العاريتين شاهقتي البياض•

ولم يكن الأمر يحتاج مني لتدقيق حتى أعرف أنها نورا بنت عائلة فرحان، فقد كانت البنت الوحيدة الشقراء في عزبة النخل•

كدت أغمض عيني من هول الصدمة، حتى لا أرى ما يجب أن أراه، وخيل إلي للحظة أن الجندي رصد نظرتي الخطرة، لكنه لم يكترث لها•

وإلا لكان نهار اللي خلفوني "أسود من قرن الخروب" على رأي أمي•

إذن فكل ما يتهامس به شباب المنطقة على النواصي صحيح ••• بنت عائلة فرحان "ماشية" مع الجندي، وياريتها ماشية وبس•

كان دارجًا عندنا في ذلك الوقت قول أن فلان "ماشي" مع فلانة، ويعني هذا أن يقابل الولد البنت في إحدى بقاع المنطقة الهادئة بعيداً عن شارع الفريد الرئيسي، وغالبًا ما كانت تلك البقعة تتمثل في غيط العنب الذي لم يكن فيه عنب ولا يحزنون، ولم يكن يبعد أكثر من ٢٠٠ أو ٣٠٠ مترًا عن الشارع العمومي حيث أن طبيعة المنطقة المغلقة لم تكن لتسمح بأبعد من ذلك، فمن الشرق يقابلك بعد قليل شريط السكة الحديد، ومن الغرب سور مصنع شكري، رجل الاشتراكية الذي "اشترك" في بناء مصنعه مئات من رجال العزبة وشبابها، ثم "اشتركوا" في طفح الكوتة به على مدي سنوات مقابل يومية لا تتعد قروشًا قليلة ، وبذلك تحقق حلم الاشتراكية التي نادى بها شكري وجيله من المجاهدين•

المهم أن الولد والبنت كانا غالبًا ما يقومان بعملية المشي هذه لفترة لا تتعدى في الأغلب ربع الساعة للمقابلة الواحدة، ولا أعرف ماذا كان يقال من كلام الحب أو الشهوة في تلك الدقائق، لأنني لم أكن "ماشيًا" مع أي من البنات، إلا أن هذه المقابلة القصيرة كانت كافية لوضع علامة سوداء في تاريخ البُنيَة، بعد أن يقف الولد مع أقرانه ليباهي بفحولته ويحكي ما حدث بينه وبين "الحتة" و زيادة، وكيف "علقها" وهو مصطلح يعني كيف استطاع أن يجذب انتباهها إليه، لكنه كما هو واضح من صيغته اللغوية، يعتبر ذلك نصرًا للصياد على فريسته• وكم كانت صدمتنا كبيرة عندما اكتشفنا في مرحلة لا حقة أن البنات أيضًا يستخدمن نفس المصطلح ومنهن من تتفاخر بأنها "علقت

الواد فلان" لمدة كام يوم•

وكما كان للصياعة الشبابية أساطينها "المشاؤون" كان من البنات أيضاً من اشتهرت بكونها من هواة المشي، وأهمهن الآنسة المصون "عبير شامبو" التي التصق بها هذا الاسم طوال حياتها فقط لأن معملاً لمستحضرات التجميل المضروبة، كان قد أجر مخزنًا أسفل منزلهم لفترة ثم تركه، لكن الاسم لم يترك عبير حتى يومنا هذا•

أما نورا، فلم يكن هناك من يجرؤ، مهما بلغت صياعته، أن يرفع عينه فيها، فالعائلة الكريمة تعود أصولها إلى "جزيرة الحجر" التي اشتهر قاطنوها تاريخيًّا بالاجرام والبلطجة، وبالتالي فلم تكن نورا على قائمة سيئات السمعة اللاتي يمشين مع الشباب•

لكن ما كان واضحًا أن الجندي تفوق و"نط" مرحلة المشي إلى مراحل أخرى لم نكن نحن نعرفها إلا من مجلة نتداولها سرًّا ملفوفة بورق جرائد يخفي صورة على الغلاف بالأبيض والأسود لسيدة ترتدي مايوه قطعتين، أو شريط فيديو نتنادى من أنحاء المنطقة لنحتشد في غرفة مغلقة في بيت زميل نختلس منه مقاطع بدون صوت، وإلا افتضح أمرنا، وعرف أهل الزميل بحقيقة اجتماعنا الميمون•

حكى صاحبي سريعًا للجندي ما حدث، بعد أن أقرأه سلام الجوكر،

ولم يذكر له طبعًا المبلغ الذي تمت مصادرته، ولم يسأله الجندي، بل أشار في هدوء إلى صبيه قائلاً:
"روح معاهم يا بعثة خلص القصة دي".

كانت هذه الكلمات السبع هي كل ما نطق به الجندي في ذلك اللقاء، لكنها كانت التعويذة التي نحتاجها للمواجهة المنشودة.

قبل أن نخرج من غرفة الجندي اختلست نظرة أخيرة إلى نورا التي كانت قد انتهت من غسيل هدوم الجندي، و قامت تنشرها على حبل ممدود في جانب من الغرفة، ورأيت من خلال قميصها الشفاف ما لم يكن يحلم برؤيته أصيع شباب عزبة النخل.

انشغل عنا بعثة لدقائق ذهب فيها، كما أوضح لنا بعد عودته، ليحضر دماغه التي تكفيه في مشواره معنا.

ثم عاد ومعه عاصفته الترابية الصغيرة التي تتبعه أينما ذهب، ووضع يده بحنان أبوي على كتف صاحبي وهو يسأله عن أوصاف المجرم الناشيء، ورغم أن ما أدلى به صاحبي من أوصاف تنطبق على نصف الشعب المصري ممن هم في ذلك العمر، إلا أن بعثة بدا كأنه يعلم جيدًا ما يجب أن يفعله، فهز رأسه بثقة العارفين، وقادنا إلى خرابة واسعة يحوطها سور قصير من الطوب الأحمر، وقد اتخذت منها جراجًا بعض مراجيح الموالد وعربات النشان المرصعة بالبمب الملون .

على يمين الخرابة كان يجلس بعض الشباب في سن بعثة أو أصغر قليلاً، وقد التفوا حول نار صغيرة أشعلوها رغم أن الجو لم يكن باردًا إلى ذلك الحد.

بدون سلام وقف بعثة على بعد خطوات منهم، وخاطب شخصًا يجلس القرفصاء ويبدو شاردًا في النار التي أمامه:

-الواد حماصة فين يا عمدة؟

رفع عمدة رأساً بعين واحدة، وشعر طويل غطى قفاه وبعض كتفيه:

-وأنا اش عرف دين أمي... أنا كنت عاشقه في الضلمة؟

بعكس ما توقعت، استقبل بعثة الإجابة الخشنة بروح رياضية واستدار في بساطة، ويده لا تزال على كتف صاحبي الذي دار معه:

-ماشي يا كـ.. أمك، أنا هاعرف اجيبه.

من الواضح أن عمدة هذا لا يقل أهمية عن بعثة نفسه، حتى أن الأخير تطوع بإعطاء لمحة من سيرة حياة عمدة بنبرة لم تخل من إعجاب شخصي:

-ابن المتـ... ده فقع عينه بطلقة رش علشان ما يدخلش الجيش.

ضحك بعثة ضحكة رائقة فضحكنا معه وقد أخذنا شعور بالزهو من هذا التباسط معنا من جانبه، وشجعنا هذا على التسامر معه في طريقنا لاسترجاع الكرامة المفقودة، وكذلك الشلن.

أخبرنا بعثة عن نفسه فقال:

-أنا أصلاً اسمي سيد، الجندي هو اللي طلّع عليَّ بعثة دي.
بس مش أي حد كده يقوللي يا بعثة، لازم يكون شقيق.

و"شقيق" تعني صديقًا مقربًا وهو لفظ انتشر في تلك الأيام بين المراهقين في أحياء القاهرة العشوائية مع أغنية الشاب خالد "دي دي"، والقمصان الفسكوس المشجرة، والبنطلون ذي الثلاث كسرات و أحيانًا أربع.

لكن اللافت أن بعثة كان يتحدث عن الجندي بطريقة غريبة، صحيح أنه لم يقلل من شأنه، لكنه في نفس الوقت لا يبجله أو يهابه كما يصح لمثله أن يهاب مثله.

كان يتكلم عنه كأنه يعرفه طوال عمره، وكأنه يتحدث عن أخيه الأكبر، أو ربما أبيه. رغم أن فارق العمر بينهما ليس كبيرًا إلى هذا الحد، لكن... من يدري؟

اتجه بنا بعثة إلى المرج القديمة، فظهرت في الليل من بعيد مجموعات من البيوت والعشش تبدو متراكمة فوق بعضها.

دخلنا قلبها فهبت رائحة عطنة مختلطة برائحة صابون، تصاعدت من الشوارع التي ابتلت بمياه الغسيل والاستحمام التي كانت تلقيها

النساء أمام البيوت قبل أن تدخل المجاري إلى المنطقة، ثم اتجه إلى بيت رسمت عليه باللون الأحمر طائرة وكتبت عبارات التهنئة بالحج، دليلاً على أداء أحدهم للفريضة.

استوقفنا أمام البيت ثم دخل وغاب دقيقة، خرج بعدها وهو ممسك بحماصة من "كمرة بنطلونه" وسأل صاحبي:
-هو ده اللي خد الفلوس منك؟

قرأ بعثة الرد على وجه أخينا فلم ينتظر ليسمعه، وبادر بلطشة خاطفة على قفا حماصة الذي انحنى من شدة الضربة، لكنه لم يعترض ولم نسمع له صوتًا مطلقًا، ولم يعط بعثة له أو للطرف الآخر، صاحب الحق، أية فرصة للكلام من الأساس، كان هو في تلك اللحظة الحاكم المطلق، والسيد الوحيد للموقف، بل للشارع، والمنطقة كلها، فلم يجرؤ واحد من الجيران، ولا المارة الذين اهتموا بالفرجة على استحياء أن يسأله عما يفعل، بل إن أكثر المتفرجين بدوا حريصون على ألا يمسك بعثة بنظراتهم الموجهة إلى قفا حماصة، فكانوا يسترقون نظرتين أو ثلاث ثم يكملون طريقهم وهم يطمئنون أنفسهم بأن الأمر لا يعنيهم، وبالتالي فلا داعي للمشاكل.
-طلع الفلوس يا ابن المتـ... انت بتقلب عيل صغير في منطقتنا يا .. أمك.

عامل دكر يا ابن الـ...

ملتزمًا صمته بالغ الحكمة، أخرج حماصة من جيبه شلنًا، ناوله لبعثة الذي قلبه في اشمئزاز ونظر لصاحبي:

-إيه ده••• انت كان معاك كام؟

-هو ده بس

-ماشي•• براءة انت يا ابن المتـ••• اسرح على امك يللا•

أسرع حماصة إلى داخل البيت وهو على وشك البكاء، بينما التفت صاحبي، وثبت عيناه الحمراوان عليه:

-انت كده وصلك حقك••• ماشي يابا؟ ما تبقاش تعدي من المنطقة دي لوحدك تاني•

ثم استدار، ووضع الشلن الفضة في جيبه و مضى في خطوته المتثاقلة•

أما أنا وصاحبي، فقد وقفنا مكاننا••• نراقب بعثة وهو يختفي في نهاية الحارة، ومعه الشلن••• ومن ورائهما عاصفته الترابية الصغيرة•

الفهرس

-مقدمة.....٧
١-آلات النفخ.....١٣
٢-أبلة آمنة – الام الرؤوم يا اولاد الجزمة.....١٩
٣- عياد ولغز البرجل العملاق.....٢٧
٤- شعبان والضغط العالي.....٣٣
٥-انت ك "عبته" وصلاته!.....٤١
٦-خوّاص ملكاً.....٤٩
٧-قلم من؟ قلم عزت.....٥٥
٨-ولولة وطنية.....٦٥
٩-الفيل صديقي.....٧٣
١٠-عيش... حرية... في الصف يا ولية.....٨١
١١-حكم السيد بعثة.....٩٥

المؤلف:

- درس الأدب الإنجليزي في جامعة عين شمس بالقاهرة.

- عمل في مجال النقد السينمائي والأدب في العديد من الصحف والمجلات المصرية والعربية.

- يعيش حالياً بين مصر وأوروبا ويعمل في مجالي الاعلام والإنتاج التلفزيوني والسينمائي.